الدفاع عن الماركسية

المجلة النظرية للأممية الشيوعية الثورية

العدد 47

النضال من أجل الثورة العالمية

الدفاع عن الماركسية

المجلة النظرية الفصلية للأممية الشيوعية الثورية

هيئة التحرير
آلان وودز (رئيس التحرير)
روب سيويل
حميد علي زاده
فرانسيسكو ميرلي
دانييل مورلي
بين كوري
جوش هيلورود
جيمس كيبلي

التصميم:
خوسي موري-دين

العدد: 47
أكتوبر 2024

© *In Defence of Marxism*

marxist.com
marxy.com

ص 03: النضال من أجل الثورة العالمية

ص 08: كيف تم بناء الأممية الشيوعية وما هي الدروس المستفادة اليوم

ص 23: الحرب والثورة: حالة النمسا 1914-1918

ص 30: عندما غزت الإمبريالية الأمريكية روسيا السوفياتية

ص 38: "اهزموا البيض بالإسفين الأحمر" جوهر الثورة العالمية

ص 45: الاشتراكية في بلد واحد: كيف تخلى ستالين عن الماركسية

الغلاف: اهزموا البيض بالإسفين الأحمر (1919-20)، إل ليسيتزكي

الغلاف الداخلي: التقلبات والمنعطفات (1921)، إل ليسيتسكي

للتواصل مع الأممية الشيوعية الثورية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يمكنكم مراسلتنا على العناوين الآتية:

البريد الإلكتروني لموقع ماركسي:
contact@marxy.com

بريد موقع الدفاع عن الماركسية:
contact@marxist.com

مجلة الدفاع عن الماركسية:
editor@marxist.com

In Defence of Marxism Ltd
49 Station Road, Polegate,
East Sussex, UK, BN26 6EA

Subscribe
and buy back issues!
marxist.com/magazine

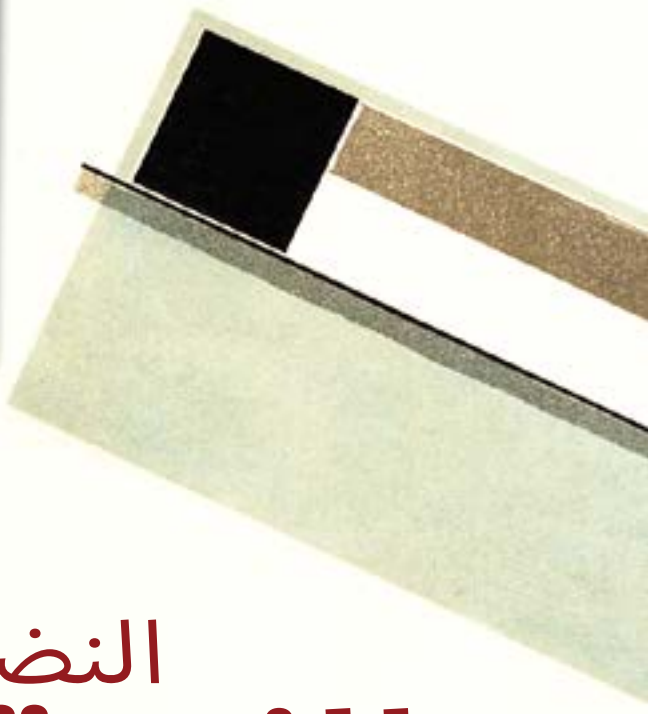

النضال من أجل الثورة العالمية

افتتاحية بقلم: آلان وودز

الموضوع الرئيسي للعدد الحالي هو الأممية. وفيه ننشر مقالا مهما، بقلم فريد ويستون، حول كيف بُنيت الأممية الشيوعية. من المهم للغاية أن يفهم رفاقنا الشباب من نحن ومن أين أتينا. إن تاريخ حركتنا غني بالدروس، وهو يستحق الدراسة المتأنية.

إن أمميتنا، الأممية الشيوعية الثورية، هي في نفس الوقت أممية شابة للغاية وأممية قديمة للغاية. فمن الناحية الإيديولوجية، يمكننا أن نتتبع تاريخنا حتى البيان الشيوعي، والذي رغم أنه كتب منذ فترة طويلة، في عام 1848، فإنه ما يزال في جميع أساسياته يحتفظ براهنيته الكاملة حتى يومنا هذا.

ومن خلال أعمال المناضل التروتسكي المخضرم ومؤسس حركتنا، الرفيق تيد غرانت، يمكننا أن نتتبع تاريخنا حتى بدايات المعارضة اليسارية الأممية في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين.

إن كل من يريد أن يفهم طبيعة الأزمة الحالية للرأسمالية، عليه أن يعود إلى أفكار ماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي، التي تشكل القاعدة الإيديولوجية المتينة التي بنيت عليها أمميتنا، والتي ندافع عنها بلا قيد أو شرط.

الماركسية هي الأممية

ليس من قبيل المصادفة أن أكد ماركس وإنجلز في البيان الشيوعي على أن الأممية هي أحد الصفات الرئيسية التي تميز الشيوعيين، وأنهم:

«... في النضالات الوطنية للبروليتاريين من مختلف البلدان، يضعون في المقدمة ويغَلِّبون المصالح المشتركة للبروليتاريا بأكملها، بغض النظر عن كل القوميات»[1].

إننا، وفي نفس الوقت الذي نكافح فيه ضد جميع أشكال التمييز واللامساواة والاضطهاد، ندافع عن الوحدة المقدسة للطبقة العاملة ونكافح بلا هوادة ضد كل محاولة لتقسيم الحركة العمالية على أسس الجنسية أو اللغة أو الدين أو الجنس أو الاثنية.

لم تكن تلك الأممية التي تبناها ماركس وإنجلز نتاجا لاعتبارات عاطفية؛ بل إنها نابعة من حقيقة مفادها أن الرأسمالية تتطور باعتبارها نظاما عالميا. فمن بين الاقتصادات والأسواق الوطنية المختلفة تنشأ سوق موحدة واحدة مترابطة لا تتجزأ: السوق العالمية.

واليوم، تشكل الهيمنة الساحقة للسوق العالمية الحقيقة الأكثر حسما في عصرنا. لا يمكن لأي بلد لوحده، مهما كان كبيرا وقويا -لا الولايات المتحدة، ولا الصين، ولا روسيا- أن يقف بمعزل عن جاذبيتها الجبارة.

الماركسية والحرب

لا تتضاءل الحاجة إلى الأممية البروليتارية خلال فترات الحرب. بل على العكس من ذلك، تصير الحاجة إليها أكثر شدة عندما تدق طبول الحرب وتسعى

الطبقات السائدة إلى تخدير عمال بلدانها بسُم الكراهية الوطنية.

هذا شيء أدركه ماركس وإنجلز دائما. فبعد هزيمة نابليون الثالث على يد بسمارك في الحرب الفرنسية البروسية، امتلأت الصحافة الألمانية "المحترمة" بدعوات متعطشة للدماء تطالب بفرض تعويضات باهظة على فرنسا وضم الأراضي الفرنسية. أليست فرنسا هي التي بدأت الحرب؟

لقد وقف الفرع الألماني للأممية، التي أسسها ماركس وإنجلز، وهي الجمعية الأممية للعمال، وحيدا في إدانة الغزو الألماني للجمهورية الفرنسية الجديدة، ومد يد الصداقة والتضامن إلى عمال فرنسا:

«... لن يتسامح العمال الألمان مع ضم الألزاس واللورين [...] وسوف نقف بإخلاص إلى جانب زملائنا العمال في جميع البلدان من أجل القضية الأممية المشتركة للبروليتاريا!»[2].

وعندما استُخدمت القوات الألمانية لمساعدة الطبقة السائدة الفرنسية في سحق كومونة باريس، في ماي 1871، أصدر ماركس النداء التالي للأممية البروليتارية:

«بعد أضخم حرب في العصر الحديث، يجب أن تتآخى جيوش المنتصرين والمهزومين من أجل المذبحة المشتركة للبروليتاريا. إن هذا الحدث غير المسبوق يشير، ليس إلى القمع النهائي لمجتمع جديد ينهض مرة أخرى، كما يعتقد بسمارك، بل إلى انهيار المجتمع البرجوازي وتحوله إلى غبار. إن أعلى جهد بطولي ما يزال المجتمع القديم قادرا عليه هو الحرب الوطنية؛ وقد ثبت الآن أن هذه مجرد خدعة حكومية، تهدف إلى تأجيل صراع الطبقات، ويجب التخلص منها بمجرد اندلاع هذا الصراع الطبقي في شكل حرب أهلية. لم يعد الحكم الطبقي قادرا على التخفي في زي وطني موحد؛ فالحكومات الوطنية هي موحدة ضد البروليتاريا!»[3].

لينين والأممية الثالثة

بفضل بصيرة مذهلة، تنبأ ماركس، منذ عام 1870، بأن ضم الألزاس واللورين من قبل الإمبراطورية الألمانية سيجعل اندلاع حرب أخرى مسألة حتمية، لكن هذه المرة على نطاق أكثر رعبا.

وقد اندلعت تلك الحرب في نهاية المطاف في صيف عام 1914. تم إلقاء ملايين العمال والفلاحين في مذبحة الحرب العالمية الأولى من أجل إعادة تقسيم العالم بين القوى الإمبريالية.

في تلك اللحظة المحورية، تخلى زعماء ما يسمى بالأممية "الاشتراكية" عن المبادئ الأممية التي كانوا يتظاهرون بها، وتخلوا عن الطبقة العاملة العالمية، ودعموا طبقاتهم السائدة الوطنية، وذلك باستثناء حزبين اثنين فقط: الصربي والروسي. بين عشية وضحاها، توقفت المنظمات الأممية للطبقة العاملة عن الوجود فعليا.

كارل كاوتسكي، المنظر البارز للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في ذلك الوقت، أعلن تخليه الكامل عن الماركسية والأممية عندما حاول تبرير تلك الخيانة، بحجة أن «الأممية لا يمكن أن تكون أداة فعالة في زمن الحرب: فهي في الأساس أداة لزمن السلم»[4].

ماتت الأممية الثانية (الاشتراكية). ومنذ عام 1914، كان لينين قد استخلص الاستنتاجات الضرورية وأعلن الحاجة إلى أممية ثالثة جديدة. وقد وفرت الموجة الثورية التي اجتاحت أوروبا، بعد استيلاء العمال الروس على السلطة، في عام 1917، إمكانية بناء تلك الأممية.

الانحطاط

كان إعلان تأسيس الأممية الثالثة (الشيوعية) بمثابة منارة أمل للبشرية جمعاء. وعلى النقيض من الرعب والبؤس اللامتناهيين اللذَين تسببت الرأسمالية فيهما، ونفاق الإصلاحيين، فقد قدمت الأممية الثالثة منظورا لعالم اشتراكي جديد.

لكن الإمكانات الهائلة للأممية الثالثة تحطمت بشكل مأساوي بسبب صعود الستالينية في الاتحاد السوفياتي، والتي أحدثت دمارا كبيرا في قيادات الأحزاب الشيوعية في الخارج، التي كانت ما تزال غير ناضجة.

وبينما نظر لينين وتروتسكي إلى الثورة الاشتراكية العالمية باعتبارها الضمانة الوحيدة لمستقبل الثورة الروسية والاتحاد السوفياتي، فقد حول ستالين وأنصاره تركيزهم إلى الداخل، مع ما أسموه بنظرية "الاشتراكية في بلد واحد".

وكما يوضح نيكلاس ألبين سفينسون في مقاله في العدد الحالي، فإن الفكرة المعادية بشكل مطلق للماركسية، التي مفادها أن الاشتراكية يمكن بناؤها داخل حدود دولة واحدة، قد عبرت عن النظرة

Read our statement against imperialist war

Read our analysis of Ukraine, the Middle East and more

Join the RCI

القومية الضيقة للبيروقراطية، التي صارت تنظر إلى الأممية الشيوعية ("الكومنترن") باعتبارها مجرد أداة للسياسة الخارجية لموسكو.

كانت ألمانيا هي البلد الذي عرف أسوء نتيجة لذلك الانحطاط. دعا تروتسكي إلى جبهة متحدة بين العمال الشيوعيين والعمال الاشتراكيين الديمقراطيين من أجل النضال ضد الخطر النازي. لكن تحذيرات تروتسكي لأعضاء الحزب الشيوعي سقطت على آذان صماء. وبدلا من ذلك، انقسمت الطبقة العاملة الألمانية إلى نصفين. سياسة الكومنترن المجنونة المسماة "الاشتراكية الفاشية"، التي اعتبرت الفاشية والاشتراكية الديمقراطية بأنهما "شقيقان توأمان"، أدت إلى انقسام الحركة العمالية الألمانية القوية وشلها، مما سمح لهتلر بالوصول إلى السلطة في عام 1933.

كانت هزيمة الطبقة العاملة الألمانية في عام 1933 نقطة تحول دراماتيكية. وقد توصل تروتسكي إلى استنتاج مفاده أن الأممية التي وقفت عاجزة عن الرد في مواجهة مثل تلك الهزيمة هي أممية قد ماتت، وأنه يتوجب بناء أممية ثورية جديدة. ولقد أثبت التاريخ صحة موقفه.

في عام 1943، تم حل الأممية الشيوعية بشكل مخزٍ، بعد أن استخدمها ستالين بكلبية كأداة للسياسة الخارجية لموسكو، وذلك دون حتى التظاهر بعقد مؤتمر. آنذاك تلقى التراث السياسي والتنظيمي للينين ضربة قوية طيلة فترة تاريخية كاملة.

الأممية الرابعة

في ظل أصعب الظروف في المنفى، وفي ظل الافتراءات من طرف الستالينيين والاضطهاد من قبل الغيبيو، حاول تروتسكي إعادة تجميع القوى الصغيرة التي ظلت مخلصة لتقاليد البلشفية وثورة أكتوبر في إطار المعارضة اليسارية الأممية.

ومن المؤسف أنه بالإضافة إلى صغر حجم قوى المعارضة اليسارية الأممية، فقد كان العديد من أتباعها مرتبكين وفاقدين للبوصلة، وارتكبوا العديد من الأخطاء، خاصة الأخطاء ذات الطابع العصبوي. وقد عكس ذلك جزئيا عزلة التروتسكيين عن الحركة الجماهيرية.

كتب تروتسكي في مقاله "العصبوية والوسطية والأممية الرابعة"، ما يلي:

«لقد دخل إلى صفوف البلاشفة اللينينيين خلال المراحل الأولية عدد كبير من العناصر اللاسلطوية والفردانية غير القادرة عموما على الانضباط التنظيمي، وأحيانا مجرد أناس فاشلين لم ينجحوا في حياتهم المهنية داخل الكومنترن. لقد نظرت تلك العناصر إلى النضال ضد "البيروقراطية" بالطريقة التالية تقريبا: يجب عدم التوصل إلى أي قرارات على الإطلاق، وبدلا من ذلك، يجب تثبيت "المناقشة" كنشاط دائم. يمكننا أن نقول بكل ثقة إن البلاشفة اللينينيين قد أظهروا قدرا كبيرا، وربما حتى قدرا أكبر مما يجب، من الصبر تجاه مثل تلك الأنواع من الأفراد والمجموعات الصغيرة. ولم يبدأ النمو الفعلي والمنهجي لمنظمتنا الأممية إلا عندما تم توطيد النواة الأممية التي بدأت في مساعدة الفروع القطرية في تطهير صفوفها من عوامل التخريب الداخلي»[5].

وأضاف:

«ففي أعقاب الاضطرابات الكبرى، لن يكون قادرا على البقاء والتطور سوى تلك المنظمة التي لم تكتف فقط بتطهير صفوفها من العصبوية، بل دربت أعضاءها بشكل منهجي على روح احتقار كل تردد إيديولوجي وكل جبن»[6].

وجه اغتيال تروتسكي، على يد أحد القتلة الستالينين، في عام 1940، ضربة قاتلة للحركة.

إن انحطاط وانهيار الأممية الرابعة بعد وفاة تروتسكي كان راجعا جزئيا إلى عوامل موضوعية. فالانتعاش الاقتصادي الهائل الذي شهدته الرأسمالية العالمية، والأوهام المتجددة في الإصلاحية والستالينية، كان يعني أن قوى الماركسية الحقيقية لم يكن بوسعها، طيلة مرحلة كاملة، أن تتوقع تحقيق مكاسب كبيرة.

ومع ذلك، فإن فشل قادة الأممية الرابعة -بابلو، وكانون، وماندل، وفرانك وشركاؤهم- في فهم التغيرات في الوضع الموضوعي لعب دورا قاتلا في تدمير الأممية.

تلك العصبوية ما تزال حاضرة اليوم في أغلب المجموعات التي رغم أنها تدعي تمثيل التروتسكية فإنها فشلت في استيعاب الأفكار الأكثر أولية التي دافع عنها تروتسكي.

التقاليد الحقيقية للتروتسكية بقيت حية بفضل عمل الرفيق تيد غرانت وغيره من قادة الفرع البريطاني، والذين سرعان ما دخلوا في صراع مع قيادة ما كان يسمى بالأممية الرابعة.

واليوم، صارت الأممية الشيوعية الثورية هي الوريثة الفخورة لذلك الخيط المتصل الذي يمكن لتيارنا أن يتتبعه من خلال أعمال تيد غرانت، من المعارضة اليسارية الأممية لتروتسكي في السنوات الأولى للأممية الشيوعية، وصولا إلى **البيان الشيوعي** والأممية الأولى.

هذه رايتنا، وتقاليدنا، وتراثنا. وتوفر لنا أفكارها أساسا لا يمكن تحطيمه. وهذا هو ضمان النجاح المستقبلي لأمميتنا.

التنافس بين الإمبرياليات

إن الحاجة إلى أممية ثورية، قائمة على المبادئ الحقيقية للماركسية، لم تكن في أي وقت مضى أكثر ضرورة مما هي عليه اليوم.

الأزمة العميقة للنظام الرأسمالي في جميع أنحاء العالم، والانحدار النسبي للإمبريالية الأمريكية -التي كانت في السابق القوة العالمية الوحيدة بلا منازع- تؤدي إلى فترة جديدة من الاضطرابات، والتنافس بين الإمبرياليات، والحروب.

في عام 1987، وقع الرئيس الأمريكي رونالد ريغان والرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف معاهدة الصواريخ النووية متوسطة المدى، والتي فرضت على الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي أن يتخلوا بشكل دائم عن جميع صواريخهما الباليستية والصواريخ التقليدية التي تطلق من الأرض والتي يتراوح مداها بين 500 و5500 كيلومتر.

في عام 2019 انسحبت الولايات المتحدة أخيرا من المعاهدة، وتبعتها روسيا بشكل حتمي. تلت ذلك جولة جديدة من سباق التسلح، مثلما يتبع الليل النهار.

في العاشر من يوليوز، وخلال قمة الذكرى الخامسة والسبعين لتأسيس حلف شمال الأطلسي في واشنطن العاصمة، أعلنت الحكومتان الأمريكية والألمانية عن خطة لنشر صواريخ أمريكية بعيدة المدى في ألمانيا بحلول عام 2026. وهي المرة الأولى، منذ الحرب الباردة، التي يتقرر فيها نشر صواريخ أمريكية بعيدة المدى في ألمانيا.

ووفقا لوزير الدفاع الألماني، بوريس بيستوريوس، فإن النشر "المؤقت" للأسلحة الأمريكية من شأنه أن يمنح حلفاء الناتو الوقت للاستعداد: «نحن نتحدث هنا عن وجود فجوة متزايدة الخطورة في القدرات في أوروبا». لكن الاستعداد لأي شيء بالضبط؟ لم يقل بيستوريوس شيئا بهذا الخصوص، لكنه بوسعنا أن نخمن.

من الواضح أنه كان يشير إلى المواجهة الحاسمة المتوقعة بين روسيا والغرب، أي ذلك الحريق المجيد الذي سوف يتم فيه تأكيد القيم المقدسة للديمقراطية الغربية في غضون أربع دقائق تقريبا في عرض رائع للألعاب النارية، والذي من المؤسف أن عددا قليلا جدا من الناس فقط هم من سوف يخرجون منه على قيد الحياة.

تعتبر هذه طريقة غريبة للغاية للدفاع عن الشعوب الأوروبية! إن هذا في الواقع يقودنا إلى التساؤل عما إذا كان ينبغي لنا أن ندافع عن هذه الشعوب، ليس ضد الروس، بل ضد حلفائهم في الناتو!

رد فعل هزيل

كان من الممكن أن يتوقع المرء ظهور جوقة من المعارضة الساخطة ضد هذا الجنون، وخاصة من جانب الخضر، الذين كانوا، في ثمانينيات القرن العشرين، صاخبين للغاية في معارضتهم لنشر الصواريخ الأمريكية بعيدة المدى في ألمانيا.

لكن الخضر الآن أصبحوا "محترمين". فقد جلسوا على مقاعدهم في الائتلاف الحاكم الذي يتزعمه أولاف شولتز. كما أيدوا بإخلاص سياسته الكارثية في أوكرانيا، متبعين إملاءات واشنطن بمنتهى الخنوع.

لقد قفز هؤلاء البرجوازيون الصغار الجبناء بحماس إلى دبابة دعاة الحرب، وخاصة فيما يتصل بقضية أوكرانيا. والواقع هو أنهم في هذه القضية لا يختلفون كثيرا عن مناصر الحروب المتشدد بيستوريوس.

هذا ناهيك عن الأحزاب "الشيوعية" المزعومة في فرنسا وإسبانيا، التي تصدر بيانات منافقة من أجل "السلام" و"الحل الدبلوماسي"، بينما تدعم عمليا إمداد أوكرانيا بالأسلحة والمساعدات العسكرية.

هذا هو مصير جميع أنواع الإصلاحيين في العصر الحالي.

النضال ضد الإمبريالية

من واجب الشيوعيين في كل مكان فضح أكاذيب وجرائم الإمبرياليين في جميع البلدان، وتقديم بديل أممي حقيقي للخطابات المنافقة التي يطلقها ما يسمى "اليسار" الإصلاحي.

ولهذا السبب على وجه التحديد أطلقت الأممية الشيوعية الثورية في الصيف الماضي حملتها: "الكتب وليس القنابل". ونحن نناشد كل من هو جاد في النضال ضد الإمبريالية أن ينخرط فيها.

لكن ولكي نتمكن أخيرا من هزم الإمبريالية، يجب أن ننظم أنفسنا، ونبني حزبا عالميا للثورة البروليتارية. هذه هي المهمة التي حددتها الأممية الشيوعية الثورية لنفسها. انضموا إلينا، لقد حان الوقت الآن!

فليسقط دعاة الحرب!

ناضلوا من أجل مصادرة أملاك أصحاب الأبناك والرأسماليين الذين يشكل جشعهم للربح سببا دائما للحروب والأزمات!

من أجل عالم اشتراكي خال من آفة الفقر والاستغلال والحروب والاضطهاد!

الحرب العادلة الوحيدة هي حرب الطبقات!

لندن، 17 شتنبر 2024

المراجع على موقعنا
marxist.com/idom-47-references
أو قم بمسح رمز QR

سجلوا في الجامعة الشيوعية الثورية 2024

الجامعة الشيوعية الثورية 2024
قوة الأفكار

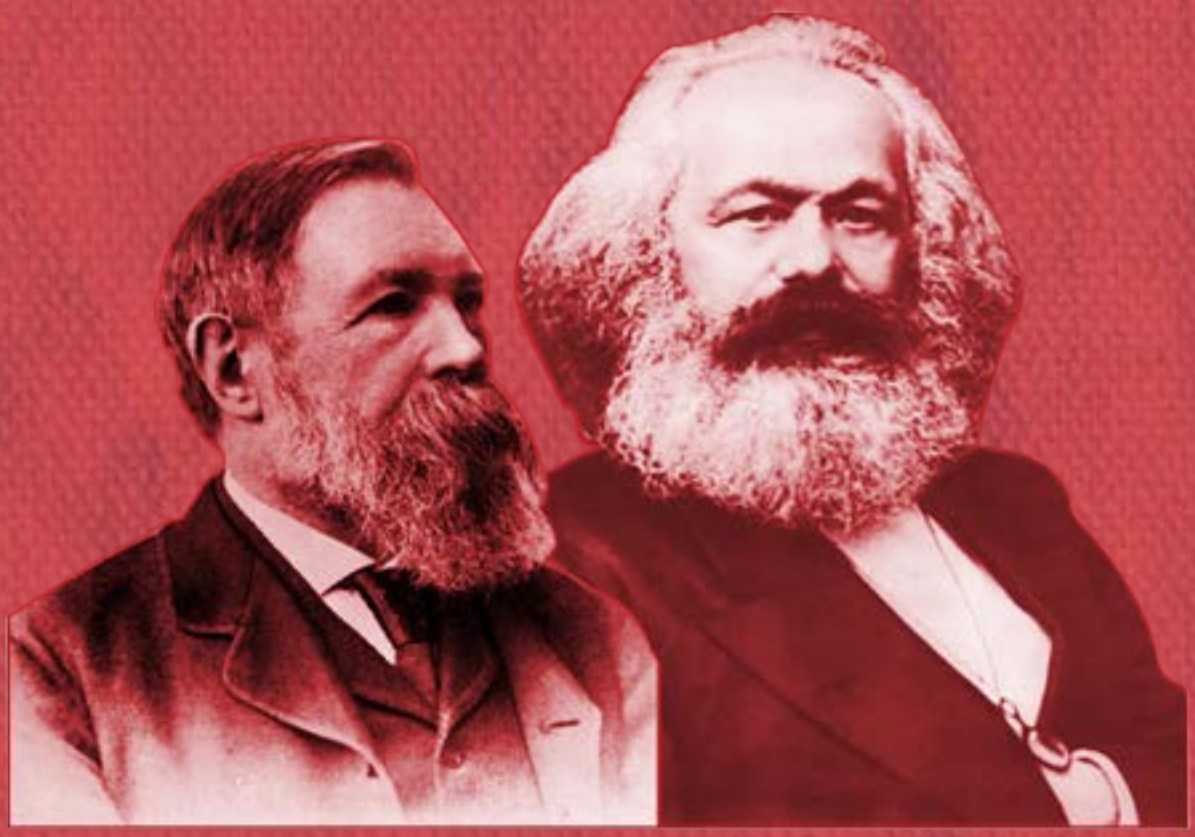

أيام
25
26
27و 28 اكتوبر

كيف تم بناء الأممية الشيوعية

لقد أدت الحرب العالمية الأولى إلى انهيار الأممية الثانية في بدايتها، وموجة من الثورات في نهايتها. وفي هذا السياق نجح لينين في بناء الأممية الثالثة (الشيوعية)، مع فروع قوية في العديد من البلدان، بهدف توفير القيادة اللازمة لانتصار الثورة العالمية. في هذه المقالة، يشرح **فريد ويستون** العمليات التي تشكلت من خلالها هذه الأممية الجديدة، والدور الذي لعبه لينين وتروتسكي في تثقيف طبقة جديدة من الشيوعيين للمهام التي تنتظرهم.

الافتتاح الكبير للمؤتمر الثاني للكومنترن (1924)، إسحاق برودسكي

وما هي الدروس المستفادة اليوم

الرأسمالية نظام عالمي، وبالتالي فإن النضال من أجل الإطاحة بها لابد وأن يكون عالميا. وهذا ما يفسر لماذا قام الماركسيون -الشيوعيون الثوريون- منذ أيام ماركس وإنجلز، بتنظيم أنفسهم على المستوى الأممي، بدءا بالأممية الأولى ثم الثانية والثالثة والرابعة.

واليوم نواجه مرة أخرى نظاما رأسماليا في أزمة عميقة على المستوى العالمي. أينما نظرنا نرى الحروب والحروب الأهلية والمجاعات وتغير المناخ وارتفاع تكاليف المعيشة والديون بمستويات غير مسبوقة والأزمات السياسية في جميع البلدان الواحد منها تلو الآخر، مع تغيرات حادة وانعطافات نحو اليسار ونحو اليمين.

نتيجة لهذا نشهد انفجارات ثورية للجماهير في جميع أنحاء العالم، كما حدث في سريلانكا العام الماضي، وكينيا وبنغلاديش هذا العام. إن العالم يتجه نحو الثورة الاجتماعية في كل مكان.

وهذا يطرح مرة أخرى، كما كان الحال في أيام لينين، الحاجة إلى منظمة أممية تجمع الشيوعيين الثوريين من جميع البلدان. ولهذا السبب أعلنا تأسيس الأممية الشيوعية الثورية لتكون منارة لكل العمال والشباب الجادين الذين أدركوا الحاجة إلى الثورة.

إن هدفنا هو بناء أممية ثورية جماهيرية قادرة على توفير القيادة المطلوبة لضمان نجاح الموجة القادمة من الثورات في وضع حد للنظام الرأسمالي بشكل نهائي، وألا تنتهي بهزيمة الطبقة العاملة، كما حدث في الماضي.

إن السنوات الأولى للأممية الشيوعية الثالثة ("الكومنترن") تشكل تجربة تاريخية ثمينة بالنسبة لنا اليوم ونحن نمضي قدما في بناء فروع الأممية الشيوعية الثورية. كيف يمكن تحويل القوى الصغيرة نسبيا التي لدينا اليوم إلى أحزاب شيوعية ثورية جماهيرية قوية؟

الحاجة إلى أممية ثالثة

كان اندلاع الحرب العالمية الأولى، في يوليوز 1914، نقطة تحول حاسمة في تاريخ العالم. فقد حشدت القوى الإمبريالية في أوروبا طبقاتها العاملة لذبح بعضها البعض من أجل خدمة أهدافها الحربية الافتراسية. آنذاك صارت هناك، أكثر من أي وقت مضى، حاجة ماسة إلى قيادة أممية واضحة، لقطع الطريق على حمّى الحرب والمساعدة في تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب طبقية. لكن جميع قادة أحزاب الأممية الثانية تقريبا استسلموا للضغوط، وقدموا الدعم لرأسماليي«هم».

كانت بذور تلك الخيانة تكمن في حقيقة مفادها أن الأممية الثانية، التي تأسست في عام 1889، قد تطورت خلال فترة من الازدهار الرأسمالي. كانت قدرة الطبقة العاملة في تلك الفترة على الفوز بالإصلاحات من خلال الصراع الطبقي، قد أثرت على نظرة قادتها، الذين طوروا وجهة نظر مفادها أن الاشتراكية يمكن تحقيقها من خلال الإصلاحات التدريجية. وهكذا، بمرور الوقت، حل التعاون الطبقي والإصلاحية محل برنامج الثورة الاشتراكية.

ورغم أن عددا من الجدالات دارت ضد تلك الاتجاهات الانتهازية، فإن درجة لانحطاط كانت قد وصلت مستويات كبيرة تحت السطح. ففي الأنشطة ليومية، بدأ العديد من ممثلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني (SPD) يمارسون سياسة التعاون الطبقي، بحكم الأمر الواقع. لكن الموقف الرسمي للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني استمر متمسكا بالماركسية. وقد أصيب لينين بصدمة شديدة حين قرأ عن استسلام زعماء الحزب الاشتراكي الديمقراطي عند اندلاع الحرب، حتى أنه تصور أن إصدار الصحيفة، التي أعلنوا فيها تأييدهم للحرب، كان خدعة من جانب هيئة الأركان العامة الألمانية.

لكن وبمجرد أن اتضحت أمام أعين لينين أبعاد الخيانة، تمكن من تشخيص حقيقة مفادها أن الأممية الثانية قد ماتت ولم تعد قادرة على قيادة الثورة الاشتراكية العالمية نحو النصر. ولذلك أعلن، منذ نوفمبر 1914، الحاجة إلى إنشاء أممية ثالثة.

لكن وفي ظل ظروف الحرب الإمبريالية، وإفراغ المنظمات العمالية، إلى جانب خيانة الزعماء "الاشتراكيين"، لم تكن الظروف اللازمة لتأسيس مثل تلك الأممية موجودة بعد. والواقع هو أن لينين أشار في مؤتمر زيمروالد المناهض للحرب، عام 1915، إلى أن كل الأمميين الحقيقيين في العالم يمكن حشرهم في بضع عربات تجرها الخيول. وسوف يتطلب الأمر تطور الأحداث، وأهمها الثورة الروسية في عام 1917، لجلب القوى اللازمة لإنشاء أممية جديدة إلى الوجود.

أهمية النظرية

لذلك كانت مهمة لينين الأكثر أهمية لأجل إعادة تأسيس الأممية الثورية هي إنقاذ منهج وبرنامج الماركسية الحقيقية من تشويهات الانتهازيين.

ولم يكن من قبيل المصادفة أنه في عام 1914، بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، قام لينين بتخصيص وقت ثمين لدراسة هيغل بعمق. لماذا فعل ذلك؟ كان ذلك لأنه بدون فهم ديالكتيك هيغل، سيكون من غير الممكن فهم منهج ماركس بشكل كامل.

الاستعراض الافتتاحي للمؤتمر الثاني للكومنترن (1921)، إسحاق برودسكي

لقد طبق لينين هذا المنهج بمهارة لمحاربة من يسمون بـ"الماركسيين"، الذين كانوا يقتبسون بشكل خاطئ مقتطفات من ماركس لتبرير دعمهم للطبقات السائدة "الخاصة بهم" أثناء الحرب. ولذلك فإن كتابات لينين التي تعود لتلك الفترة تشكل كنزا من النظرية الماركسية. وتشمل هذه الكتابات "انهيار الأممية الثانية" (1915)؛ وكراس "الاشتراكية والحرب" (1915)؛ وكتابه الشهير "الإمبريالية: أعلى مراحل الرأسمالية" (الذي كتبه في يناير ويونيو 1916).

كان شرح لينين للماركسية ودفاعه عنها أمرا حيويا لتمكين البلاشفة من قيادة الثورة الروسية إلى النصر. ويتضح هذا في "رسائل من بعيد" (التي كتبها في مارس 1917)؛ تليها "أطروحات أبريل"؛ وعمله البارز: "الدولة والثورة" (الذي كتبه في غشت وشتنبر 1917)؛ وكلها كانت ضرورية في مكافحة تردد القيادة البلشفية أثناء مسار الثورة.

إن تاريخ الحزب البلشفي غني بالدروس حول كيفية بناء حزب ثوري. فقد مر الحزب بفترات من العمل السري، حيث عملت الخلايا الصغيرة في ظروف بالغة الصعوبة، لكن الحزب مر أيضا بفترات من العمل الجماهيري، كما حدث في عام 1905 عندما اندلعت الثورة الروسية الأولى.

إن تلك التجربة الغنية التي مر بها الحزب البلشفي هي التي شكلت الأساس النظري للأممية الشيوعية في فترة مؤتمراتها الأربعة الأولى، 1919-1922. وكل هذا يظهر بوضوح شديد من خلال المناقشات التي جرت آنذاك.

إذا نظرنا إلى القرارات والوثائق والخطابات التي ألقيت في المؤتمرات الأربعة الأولى، فسوف ندرك بوضوح الدور التعليمي الأساسي الذي لعبه عملاقا النظرية الماركسية، لينين وتروتسكي. لقد أدركا مهمتهما المتمثلة في نقل خبرتهما وأفكارهما المتراكمة إلى جيل جديد من القادة الثوريين الذين كانوا يبرزون إلى الواجهة. وبهذه الطريقة كانا قادرين على المساعدة في تسليح الأحزاب الشيوعية، الناشئة حديثا، في جميع أنحاء العالم، بالأساليب والتكتيكات الصحيحة لتحقيق النصر.

المؤتمر الأول - نداء إلى التعبئة

إن الأحداث الكبرى هي التي تعِد الظروف للثورة، وفي المقابل فإن أزمة الرأسمالية هي التي تعِد الظروف لتلك الأحداث. لقد دشنت الثورة الروسية، عام 1917، فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، والتي شهدت موجة من الثورات التي اجتاحت أوروبا. كانت الظروف الموضوعية للثورة قد نضجت، أو كانت في طور النضوج، في بلد تلو الآخر.

في يناير 1918، اجتاح إضراب عام النمسا- المجر وكانت له أبعاد ثورية. وفي نوفمبر من ذلك العام، بدأت الثورة الألمانية، التي أطاحت بالقيصر وأنهت الحرب. شارك قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الحكومة، وفعلوا كل ما في وسعهم لإعادة السلطة إلى الرأسماليين. ومن ثم عادت الثورة إلى النمسا، حيث خان الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويون بدورهم الثورة.

وفي الوقت نفسه، انقسمت الأممية الثانية عموما إلى ثلاثة معسكرات. كان المعسكر الأول هو معسكر الشوفينيين الصريحين، الذين عبروا بشكل علني عن خيانتهم أثناء الحرب. وكان هناك معسكر ثان أسماه لينين "الوسط" -كان كاوتسكي الوجه البارز داخله- والذي أخفى انتهازيته وراء لغة ثورية. وثالثا كان هناك الجناح الثوري المتنامي، والذي انشق كثيرون منه عن الأممية الثانية من أجل تشكيل أحزاب شيوعية في بلدانهم.

انعقد المؤتمر الأول للكومنترن، في موسكو، في الفترة من 02 إلى 06 مارس 1919، بهدف تجميع مختلف التيارات الثورية على المستوى الأممي. لم يحضر المؤتمر سوى 52 مندوبا، نظرا للصعوبات التي واجهوها في السفر إلى موسكو أثناء ذروة الحرب الأهلية، إلى جانب حقيقة مفادها أن سيرورة التجذر كانت ما تزال في مرحلة مبكرة. وهكذا فقد كان المؤتمر بمثابة دعوة إلى التعبئة، ليكون بمثابة نقطة مرجعية لذلك الجناح اليساري الثوري المتنامي على المستوى الأممي مع تنامي نضج سيرورة الثورة العالمية.

أصدر المؤتمر بيانا -صاغه ليون تروتسكي- قال بجرأة:

«إن البروليتاريا هي التي يجب أن تقيم النظام الحقيقي، نظام الشيوعية. يجب أن تضع حدا لهيمنة رأس المال، وتجعل الحرب مستحيلة، وتمحو الحدود، وتحول العالم بأسره إلى كومنولث تعاوني واحد، وتحقق الأخوةوالحريةالإنسانيةالحقيقية»[1].

كان أحد الأهداف الرئيسية للمؤتمر هو رسم خط فاصل واضح بينه وبين الإصلاحيين في الأممية الثانية، بما في ذلك "وسط" كاوتسكي. ولذلك فقد ركزت أغلب المناقشات على الاعتراف بـ"دكتاتورية البروليتاريا"، والديمقراطية السوفياتية -أي سلطة العمال- التي كان الإصلاحيون معادين لها.

وبالتالي فقد رفع المؤتمر بحزم راية الثورة العالمية ليراها عمال العالم. واستمرت الأممية الشيوعية الجديدة لتصبح نقطة مرجعية لملايين البشر في فترة النضال العاصفة التي تلت ذلك.

التجذر السريع

يتراكم الصراع الطبقي على مدى عقود من الزمان، لكن هناك فترات نرى فيها تطورات سريعة في وعي الطبقة العاملة. ففي بريطانيا، بلغ عدد الأيام الضائعة بسبب نشاط الإضرابات 35 مليون يوم عمل في عام 1919، و86 مليونا في عام 1921. وارتفع عدد أعضاء النقابات العمالية من 4,1 مليون عضو في عام 1914 إلى 8,3 مليون

عضو في عام 1920. وقد اقترن ذلك بزيادة في الدعم لصالح حزب العمال.

في ألمانيا بلغ عدد الإضرابات في عام 1919 نحو 3682 إضرابا، ثم ارتفع إلى 4348 إضرابا بحلول عام 1922. وارتفع عدد أعضاء النقابات العمالية الاشتراكية من 1,8 مليون في عام 1918 إلى 5,5 مليون في عام 1919 -أي بزيادة بلغت نحو أربعة ملايين عامل في عام واحد فقط. وبحلول عام 1920 بلغ عدد أعضاء جميع النقابات -وليس الاشتراكية فقط- عشرة ملايين. هذا تعبير إحصائي عن الثورة التي بدأت في عام 1918.

في إيطاليا، ارتفع عدد أعضاء اتحاد النقابات العمالية، بقيادة الاشتراكيين، من 250 ألف عضو في عام 1918 إلى 2,1 مليون في عام 1920. وفي الوقت نفسه، تضاعف عدد أعضاء الحزب الاشتراكي الإيطالي (PSI) بأكثر من ثلاثة أضعاف في نفس الفترة، حيث انتقل من 60 ألفا في عام 1918 إلى 210 آلاف بحلول عام 1920. وقد شهد هذان العامان موجة إضرابات ضخمة، بلغت ذروتها باحتلال المصانع في شتنبر 1920.

يمكن العثور على أرقام مماثلة في العديد من البلدان الأخرى. ويكفي أن نقول إنه في كل مكان كانت النقابات العمالية تتوسع بشكل كبير، وكانت أحزاب الطبقة العاملة تزيد من قوتها بشكل كبير أيضا.

في الوقت نفسه، نرى في كل مكان قادة النقابات العمالية يلعبون دورا محافظا، ويكبحون العمال، وكانت هناك أيضا الخيانة العلنية من جانب الزعماء السياسيين للطبقة العاملة.

كانت تلك التجربة هي التي أدت إلى ظهور تيارات يسارية قوية داخل الأحزاب الاشتراكية. ومن تلك التيارات نشأت بعض الأحزاب الشيوعية الرئيسية في أوروبا، مثل ألمانيا وفرنسا وإيطاليا.

لم تكن هناك صيغة واحدة لكيفية تطور تلك السيرورة. ففي فرنسا وإيطاليا وألمانيا، جاءت القوى الجماهيرية للأحزاب الشيوعية من الانشقاق عن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية القديمة.

أما في أماكن أخرى، مثل بريطانيا، فقد كان هناك اندماج لمجموعات ثورية صغيرة لتشكل فروعا قطرية للأممية الشيوعية. وفي أماكن أخرى، في معظم أنحاء آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، تم بناء الأحزاب الشيوعية من ثلة من الكوادر المؤسسين، وكانت الصين هي المثال الرئيسي عن ذلك.

فرنسا

في فرنسا، شعرت قواعد الحزب الاشتراكي الفرنسي (الفرع الفرنسي للأممية العمالية SFIO) بتأثير كل من الأزمة في فرنسا والثورة الروسية. وفي عام 1920، عقد الحزب مؤتمرين: أحدهما في أبريل، والذي رشح وفدا لزيارة روسيا السوفياتية ثم مؤتمر ثان في تورز، والذي تم تنظيمه في نهاية دجنبر من نفس العام.

دعا الأمين العام للحزب، لودوفيك أوسكار فروسارد، بالاشتراك مع مارسيل كاشين، المحرر الجديد لصحيفة الحزب، لومانيتيه، إلى العضوية غير المشروطة في الأممية الشيوعية. وفي معارضة ذلك، كان الفصيل اليميني، بقيادة النائب البارز ليون بلوم، في حين كان الموقف الثالث، الذي عبر عنه جان لونغيه، هو الانضمام لكن بشروط معينة، أي دون الالتزام الكامل ببرنامج ومبادئ الأممية الشيوعية.

بعد الاستماع إلى المواقف المختلفة المعبر عنها في المؤتمر، صوتت أغلبية المندوبين، 3252 مقابل 1022، لصالح الانضمام إلى الأممية الشيوعية. وكان شباب الحزب قد اتخذوا بالفعل قرار الانضمام إلى الأممية الشيوعية للشباب قبل بضعة أشهر.

بعد بضعة أشهر تبنوا اسم الحزب الشيوعي -الفرع الفرنسي للأممية الشيوعية- مع 110 ألف عضو. انشق ليون بلوم لإصلاح SFIO الذي لم يضم سوى 40 ألف عضو.

إيطاليا

في إيطاليا انضم الحزب الاشتراكي الإيطالي رسميا إلى الأممية الثالثة في مارس 1919. وفي مؤتمره الذي عقد في أكتوبر 1919 في بولونيا، دعا الحزب حتى إلى إنشاء السوفييتات في إيطاليا، وإلى الإطاحة بالديمقراطية البرجوازية. لكن ذلك كان بالكلام فقط؛ بينما في الممارسة العملية لم يفعل شيئا ملموسا للعمل بشكل منسجم على أساس تلك القرارات.

لقد عبر مؤتمر بولونيا عن الرغبات الحقيقية لقواعد الحزب، لكن تلك الرغبات تمت تصفيتها من طرف القادة الإصلاحيين والوسطيين.

في شتنبر 1920، أدى الدور الخياني الذي لعبه الإصلاحيون أثناء حركة احتلال المصانع، إلى تسريع سيرورة التمايز الداخلي بين الجناح الثوري الحقيقي للحزب، وبين الوسطيين والإصلاحيين المتذبذبين.

عندما اجتمع الحزب لعقد مؤتمره، في ليفورنو في 15 يناير 1921، كانت شروط العضوية -"الشروط الـ 21"- التي تبناها المؤتمر الثاني للكومنترن لرسم خط فاصل مع الانتهازيين، في قلب المناقشة. وقد طرح المؤتمر صراحة مسألة طرد الجناح الإصلاحي للحزب وزعمائه، وخاصة فيليبو توراتي وجوزيبي موديليناني.

دافع أماديو بورديغا -الذي أصبح زعيم الحزب الشيوعي- عن ضرورة قبول الشروط الـ 21 بالكامل. ورفض جياسينتو سيراتي، زعيم التيار الوسطي في الحزب، قبول ذلك.

وقد تم تقديم ثلاثة توصيات إلى المؤتمر، حيث فاز سيراتي بدعم 100 ألف عضو في الحزب، واليمين 15 ألفا، والشيوعيين 58 ألفا.

في أعقاب ذلك انسحب الشيوعيون من المؤتمر، وهم يغنون نشيد الأممية، وتجمعوا في مسرح سان ماركو لتأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي، الفرع الإيطالي للأممية الشيوعية.

حراس حمر في مصنع محتل في إيطاليا، 1920

بطاقة عضوية الحزب الشيوعي الإيطالي، 1923

ألمانيا

في ألمانيا لم تكن السيرورة مباشرة كما كانت في فرنسا وإيطاليا. ومع ذلك، فقد عبرت عن اتجاه مماثل للتطور: جاء الجزء الأكبر من أعضاء الحزب الشيوعي الألماني المستقبلي من قواعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي القديم، الذي كان قد نما بشكل كبير على خلفية الأحداث الثورية خلال الفترة التي تلت مباشرة نهاية الحرب.

في البداية، تجمع الثوريون الحقيقيون حول راية "المجموعة الأممية"، التي صارت تعرف فيما بعد باسم "السبارتاكيين"، داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي. في أبريل 1917 حدث انقسام كبير في صفوف الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وتم تشكيل حزب "المستقلين"، "الحزب الاشتراكي الديمقراطي الموحد". سار السبارتاكيون على خطى الانقسام، لكنهم بعد اندلاع الثورة الألمانية في نوفمبر 1918، قرروا الانفصال عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الموحد وأسسوا الحزب الشيوعي في نهاية عام 1918.

ونتيجة لرد الفعل ضد السياسة الإصلاحية التي تبناها الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وضد انتهازية كاوتسكي وأغلبية زعماء الحزب الاشتراكي الديمقراطي الموحد، فقد نشأ الحزب الشيوعي الألماني مصابا بأفكار يسارية متطرفة. حيث قاموا، على سبيل المثال، بمقاطعة النقابات العمالية، ورفضوا المشاركة في انتخابات الجمعية التأسيسية التي تمت الدعوة إليها في يناير 1919. كان الحزب أيضا ميالا إلى المغامرة، مثل "انتفاضة السبارتاكيين" المبكرة في يناير 1919. وبعد مقتل زعيميه البارزين -روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت- في أعقاب الانتفاضة، تقلص إلى حد كبير عدد القادة ذوي الخبرة القادرين على كبح جماح ميوله اليسارية المتطرفة.

برز الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل كقوة رئيسية، حيث بلغ عدد أعضائه 300 ألف عضو في مارس 1919، ثم نما بسرعة إلى 800 ألف عضو بحلول أبريل 1920.

أصبح "المستقلون" قناة التعبير عن التجذر الهائل للطبقة العاملة. ونتيجة لذلك، قبلت أغلبية أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل "الشروط الـ 21" وصوتوا لصالح الانضمام إلى الأممية الشيوعية في مؤتمرها الذي عقد في أكتوبر 1920، واندمجوا مع الحزب الشيوعي الألماني. وفي سياق هذه السيرورة انقسم الحزب إلى نصفين، فتخلص من جناحه اليميني. وهكذا تشكل أكبر حزب شيوعي خارج روسيا السوفياتية، حيث بلغ عدد أعضائه 500 ألف عضو.

بريطانيا

لدينا في فرنسا وإيطاليا وألمانيا أمثلة ملموسة لأحزاب شيوعية جماهيرية نشأت من الجناح اليساري للأحزاب الاشتراكية الديمقراطية القديمة. ولكن في بريطانيا، تأسس الحزب [الشيوعي] في عام 1920 من خلال اندماج عدد من المجموعات الماركسية صغيرة الحجم، والتي شملت الحزب الاشتراكي البريطاني، ومجموعة الوحدة الشيوعية لحزب العمال الاشتراكي، فضلا عن جمعية جنوب ويلز الاشتراكية.

وبعد عام واحد انضم إليهم حزب العمال الشيوعي الإسكتلندي أيضا.

وكما كان الحال في ألمانيا وإيطاليا، فقد كان الحزب الشيوعي في بريطانيا مصابا في البداية بالنزعات اليسارية المتطرفة. وكان البعض داخله يقولون بضرورة رفض العمل البرلماني، وعدم جواز أن تكون للحزب أية علاقة بحزب العمال.

لكنه لم يكن هناك مفر من حقيقة أن جماهير واسعة من العمال في بريطانيا كانت ما تزال ترى في حزب العمال نقطة مرجعية لها. وكان هذا هو السبب الذي جعل لينين يخصص قسما من كتابه، "مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية"، لتثقيف وإعادة توجيه الشيوعيين البريطانيين للعمل داخل حزب العمال وفي محيطه. وقد خصصت جلسة كاملة من جلسات المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية لمناقشة هذه المسألة بالتفصيل.

المؤتمر الثاني

لقد انعكس التجذر المتزايد لشريحة واسعة من الطبقة العاملة العالمية في تكوين ومهام المؤتمر الثاني للكومنترن، الذي عقد في الفترة من 19 يوليوز إلى 07 غشت 1920. وفي حين كان المؤتمر الأول بمثابة دعوة حاشدة للتيارات والمجموعات الشيوعية الصغيرة، فقد شهد المؤتمر الثاني حضور 218 مندوبا من 54 حزبا ومنظمة من جميع أنحاء العالم، لتوضيح برنامج وتكتيكات الأممية الجديدة.

ونظرا لأن فئة كبيرة من قواعد العديد من الأحزاب الاشتراكية كانت حريصة على الانضمام إلى الأممية، فقد كان هناك خطر يتمثل في أن يتمكن العديد من القادة الإصلاحيين القدامى من القفز إلى السفينة معهم، من أجل محاولة الحفاظ على مكانتهم ومناصبهم.

فعلى سبيل المثال، انضم الحزب الاشتراكي الإيطالي بأكمله إلى الأممية الشيوعية، تحت ضغط قواعد الحزب التي تجذرت بفعل الصراع الطبقي المكثف في الفترة 1918-1920 في إيطاليا. لكن الجناح الإصلاحي، بقيادة توراتي وموديلياني، كان ما يزال داخل الحزب، ويعمل ضد الأفكار الثورية للأممية.

وقد لفت ذلك الخطر انتباه المؤتمر الثاني منذ البداية. فعقدت سلسلة من المناقشات، بما في ذلك حول دور الأحزاب الشيوعية والسوفييتات وأساليب العمل، من أجل التمييز بشكل قاطع بين برنامج الشيوعيين وبرنامج الإصلاحيين. وقد تم تلخيص تلك النقاشات في "شروط القبول في الأممية الشيوعية"، أو "الشروط الـ 21" كما يشار إليها غالبا، والتي صاغها لينين نفسه.

أشار لينين إلى أن:

«الأحزاب والمجموعات التي انضمت مؤخرا فقط إلى الأممية الثانية قد صارت تتقدم أكثر فأكثر بطلب العضوية في الأممية الثالثة، **على الرغم من أنها لم تصبح شيوعية حقا**. إن الأممية الثانية قد تحطمت بالتأكيد. وإذ بدأت أحزاب ومجموعات "الوسط" تدرك أن الأممية الثانية

"دكتاتورية ستينس أم دكتاتورية البروليتاريا؟"
ملصق انتخابي للحزب الشيوعي الألماني عام 1920. ساعد الصناعي والسياسي هوغو ستينس، المصوَّر على الجانب الأيسر، في تمويل "فريكوربس"، التي كانت مسؤولة عن اغتيال الشيوعيين الثوريين كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ عام 1919.

قد صارت بدون أمل، فإنها تحاول أن تتكئ على الأممية الشيوعية التي تكتسب قوة متزايدة. بيد أنهم في الوقت نفسه يأملون في الاحتفاظ بدرجة من "الاستقلال الذاتي" تمكنهم من انتهاج سياساتهم الانتهازية أو "الوسطية" السابقة. إن الأممية الشيوعية قد صارت، إلى حد ما، على الموضة.

إن رغبة بعض المجموعات "الوسطية" الرائدة في الانضمام إلى الأممية الثالثة تؤكد بوضوح أن الأممية قد حصلت على تعاطف الغالبية العظمى من العمال الواعين طبقيا في جميع أنحاء العالم، وأنها تصير أكثر قوة يوما بعد يوم.

قد تواجه الأممية الشيوعية، في ظل ظروف معينة، **خطر التمييع بسبب تدفق مجموعات متذبذبة ومشوشة** والتي لم تقطع حتى الآن مع أيديولوجية الأممية الثانية»[2]. [التشديد من عندي].

ومن أجل حماية الأممية الجديدة من مثل تلك العدوى، نصت النقطة السابعة على وجه التحديد على أنها: «... لا يمكن أن تتسامح مع وضع يحق فيه لإصلاحيين واضحين، مثل توراتي وموديليياني وغيرهما، أن يعتبروا أنفسهم أعضاء في الأممية الثالثة»[3]. وكان ذلك الإجراء موجها على وجه التحديد إلى الخونة الطبقيين الذين لا يمكن إصلاحهم، وإلى المتعاونين الطبقيين الإصلاحيين الذين أصبحوا أعضاء في بعض فروع الأممية الشيوعية.

البرنامج والأساليب

شهد المؤتمر الثاني مناقشات معمقة حول سلسلة من القضايا المهمة.

فعلى سبيل المثال، حذر لينين من الفكرة القائلة بـ"الانهيار الوشيك للرأسمالية" باعتبارها خطأ يساريا متطرفا يحتاج إلى تصحيح. ونبه المندوبين في المؤتمر إلى أنه على الرغم من وجود أزمة ثورية واضحة في العديد من البلدان، فإنه ما يزال هناك احتمال لأن يجد الرأسماليون مخرجا، طالما بقوا قادرين على التمسك بالسلطة، وأن النتيجة تعتمد على الحزب الثوري في كل بلد. ليست هناك أية ضمانة مسبقة لنجاح الثورة.

كما كرس لينين الكثير من الاهتمام لمسائل نظرية رئيسية أخرى. وكتب (وعدل) مسودة أطروحات حول المسألة القومية والاستعمار للمؤتمر الثاني. مثلت الأطروحات قطيعة واضحة مع المواقف الغامضة التي تبنتها، في كثير من الأحيان، أحزاب الأممية الثانية، حيث كان الإصلاحيون اليمينيون يرون في الاستعمار "مهمة حضارية أوروبية"، وبالتالي دعموا طموحات برجوازياتهم الإمبريالية.

لقد وقفت الأممية الشيوعية بثبات إلى جانب الشعوب المضطهَدة في المستعمرات ودعت الطبقة العاملة في البلدان المتقدمة إلى دعم النضالات المناهضة للإمبريالية التي تخوضها تلك الشعوب. وقد ميزت بوضوح بين الأمم المضطهِدة والأمم المضطهَدة. ولولا هذا الموقف المبدئي من الاستعمار لكان من المستحيل بناء فروع للأممية الشيوعية في البلدان المستعمَرة. نرى هنا، مرة أخرى، كيف تشكل الأفكار المفتاح لبناء منظمة.

وعلى سبيل المثال، ففي الصين -التي كانت آنذاك بلدا شبه مستعمر- كان لتلك الأفكار دور عظيم في جمع القوى الأولى للحزب الشيوعي. فقد بدأت كوادرها الأولى على شكل مجموعة دراسية ماركسية في جامعة بكين، حيث لعب الأستاذ -تشين دوكسيو- دورا رئيسيا.

في البداية كانت المجموعة تتألف من مثقفين، قاموا بتأسيس الحزب الشيوعي الصيني في يوليوز 1921. في مؤتمره التأسيسي اجتمع اثنا عشر مندوبا، يمثلون 59 عضوا في المجموع.

ضآلة القوى الصغيرة للغاية التي كانت لديهم لم تمنعهم من أن يسموا أنفسهم حزبا، والذي تم بناؤه حرفيا من الصفر. إلا أنه بحلول شهر ماي من عام 1925، تمكن ذلك التجمع الأولي الصغير من الوصول إلى رقم ألف عضو -معظمهم من طلاب الجامعات والمثقفين-.

ثم جاء حدث تاريخي كبير، وهو الثورة الصينية في الفترة ما بين 1925 و1927، والتي فتحت إمكانيات هائلة للحزب، حيث استقطبت صفوفه عشرات الآلاف من العمال. وفي غضون عامين ارتفع عدد أعضاء الحزب إلى ما يقرب من 60 ألف عضو.

كان للثورة الروسية تأثير كبير على المستوى العالمي. فبدأت الأحزاب والمجموعات الشيوعية في الظهور في العديد من البلدان الأخرى حول العالم، على سبيل المثال في الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية، حيث انطلقت غالبا على شكل حلقات صغيرة من المثقفين، التي بدأت لاحقا في الاتصال مع شرائح أوسع من العمال.

ضد التطرف اليساري

نجحت الأممية الشيوعية في أن تجذب إلى لوائها شريحة كبيرة من العمال والشباب المناضلين، والذين كان العديد منهم قد تجذروا بفعل الأحداث الكبرى التي عرفتها تلك الفترة. ومع ذلك، فقد كان العديد منهم -بمن في ذلك قادة الأحزاب الشيوعية الجديدة- عديمي الخبرة تماما عندما يتعلق الأمر بفهم المنهج والتكتيكات الماركسية.

كان العديد من هؤلاء الشيوعيين الجدد يتحلون برفض سليم لانتهازية الأممية الثانية، التي تكيفت مع البرلمانية. وكذلك شعر العديد منهم بالاشمئزاز من الزعماء الإصلاحيين للنقابات العمالية، الذين عملوا بمثابة كابح للحركة. لكن شريحة من هؤلاء الشيوعيين توصلت إلى استنتاج خاطئ مفاده أن "البلشفية" تعني ببساطة التعنت الثوري ورفض جميع التسويات. لقد اعتقدوا أنه يكفي بناء الأحزاب الشيوعية بمجرد التنديد بالديمقراطية البرجوازية، وإنشاء نقابات عمالية "ثورية" بحتة. حتى أن الشيوعي الهولندي، هيرمان غورتر، هاجم لينين، واتهمه بـ "الانتهازية"

"العالم يقف على فوهة بركان..." (1921)، فلاديمير مياكوفسكي. اللافتة مكتوب عليها "الكومنترن".

لدفاعه عن النضال البرلماني والعمل داخل النقابات العمالية.

وصف لينين ذلك الموقف بأنه "يساري متطرف"، أو "شيوعية يسراوية". وأكد أنه لا يكفي مجرد التنديد بالرأسمالية وانتظار انضمام الجماهير إلى الحزب الثوري. بل يجب كسب الجماهير، وهو ما يتطلب أقصى قدر من المرونة في التكتيكات. كان هذا هو الدرس الأساسي من كامل تاريخ الحزب البلشفي.

لقد أدرك لينين أنه ما لم يتم تصحيح مثل تلك الأفكار العصبوية بسرعة، فإن فروع الأممية الشيوعية قد تتحطم على صخور الثورة نفسها. ومع ذلك فقد وصف لينين ذلك الخطأ بأنه "طفولي"، أي أنه نتاج عدم النضج، والذي يمكن تصحيحه من خلال الشرح الصبور والنقاش.

لذلك ألف لينين كتابه "مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية"، في أبريل ومايو من عام 1920، وذلك على وجه التحديد لمعالجة تلك المسألة في المؤتمر الثاني للكومنترن. يعمل لينين في هذا الكتاب على تلخيص الدروس التي تعلمها الحزب البلشفي من مشاركته في ثلاث ثورات، بين عامي 1905 و1917، والدروس المستفادة منذ الاستيلاء على السلطة. ويحذر من مخاطر كل من الانتهازية والنزعة اليسراوية المتطرفة.

نشر ذلك الكتاب باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية حتى يتمكن جميع المندوبين إلى المؤتمر الثاني من قراءته. ويمكن ملاحظة الأهمية التي أولاها لينين لهذا النص من خلال مشاركته الشخصية في تنضيد الكتاب وطباعته. لقد أراد أن يتأكد تماما من نشره قبل افتتاح المؤتمر.

لقد سعى كل من لينين وتروتسكي إلى توضيح الأفكار والتكتيكات الشيوعية الحقيقية من خلال الشرح والمناقشة الصبورة سواء في مؤتمرات الأممية الشيوعية أو بالموازاة معها. لقد كتبا نصوصا مطولة وألقيا خطابات حول القضايا الرئيسية.

وكما يمكننا أن نرى من هذا المثال، فقد سعى لينين في معظم الحالات إلى حل المشاكل السياسية بالأساليب **السياسية**، وليس من خلال التدابير التنظيمية.

لقد كرس الكثير من الوقت لذلك. كان يدرك أنه لا يمكنك إقناع وتعليم الشيوعيين الثوريين الحقيقيين **والمفكرين** بأسلوب الأوامر، لأن كل ما ستحققه بأسلوب الأوامر هو صناعة "حمقى مطيعين" غير قادرين على توجيه أنفسهم في خضم عواصف وضغوط الصراع الطبقي والثورة.

النقابات العمالية: مقاربة ديالكتيكية

ناقش المؤتمران الثاني والثالث كذلك مسألة النقابات العمالية بالتفصيل. وفي أطروحات الحركة النقابية ولجان المصانع والأممية الثالثة التي نوقشت في المؤتمر الثاني، ورد بوضوح ما يلي:

«... أثبتت النقابات العمالية، أثناء الحرب، أنها كانت، في أغلب الحالات، جزءا من الجهاز العسكري للبرجوازية، تساعد هذه الأخيرة على استغلال الطبقة العاملة إلى أقصى قدر ممكن في صراع محموم من أجل الأرباح. فالنقابات التي كانت تضم في المقام الأول العمال المهرة، الذين يحصلون على أجور أفضل، والمقيدين بضيق أفقهم المهني، والذين تقيدهم أجهزة بيروقراطية منفصلة عن الجماهير، والمصابين بالإحباط على يد قادتهم الانتهازيين، قد خانت ليس فقط قضية الثورة الاجتماعية، بل وأيضا النضال من أجل تحسين ظروف حياة العمال الذين تنظمهم تلك النقابات»[4].

لكـن وبعـد أن أوضحـت الأطروحـات تلـك الحقيقـة بـكل صراحـة ووضـوح، أقـرت أيضـا بـأن:

«... الجماهـير الأوسـع مـن العـمال، الذيـن وقفـوا حتـى الآن بعيديـن عـن النقابـات العماليـة، صـاروا يتدفقـون الآن إلى صفوفهـا في تيـار قـوي. وفي جميـع البلـدان الرأسـمالية، يمكـن ملاحظـة زيـادة هائلـة في النقابـات العماليـة، التـي أصبحـت الآن منظمات للجماهـير الرئيسـية مـن البروليتاريـا، وليـس فقـط عناصرهـا المتقدمـة. وتسـعى هـذه الجماهـير، مـن خـلال تدفقهـا إلى النقابـات، إلى أن تجعـل منهـا سـلاحها لخـوض معركتهـا.

إن تفاقـم العـداء الطبقـي يضطـر النقابـات العماليـة إلى قيـادة الإضرابـات، التـي تتدفـق في موجـة واسـعة النطـاق عـبر العـالم الرأسـمالي بأكملـه، مـما يقطـع اسـتمرار سـيرورة الإنتـاج والتبـادل الرأسـماليين. ومـن خـلال رفـع الطبقـات العاملـة مـن سـقف مطالبهـا بمـا يتناسـب مـع ارتفـاع الأسـعار والإرهـاق الـذي تتعـرض لـه، تقـوض أسـاس كل الحسـابات الرأسـمالية والمقدمـات الأوليـة لـكل إدارة اقتصاديـة منظمـة بشـكل جيـد. **إن النقابـات، التـي كانـت خـلال الحـرب أجهـزة إكـراه عـلى الجماهـير العاملـة، أصبحـت بهـذه الطريقـة أجهـزة للقضـاء عـلى الرأسـمالية**»[5]. [التأكيـد مـن عنـدي]

وهنـا نـرى المنهـج الديالكتيـكي للينـين عـلى أرضيـة الممارسـة. فهـو يسـمح للشـيوعيين برؤيـة كيـف أن الأشـياء، مـع تطورهـا وتغيرهـا، يمكـن أن تتحـول في الواقع إلى نقيضهـا. كانـت النقابـات العماليـة تتعـرض للضغـوط مـن طـرف مصلحتـين طبقيتـين متعارضتـين تمامـا.

فمـن ناحيـة، كان الرأسـماليون يعملـون بوعـي عـلى إفسـاد قـادة النقابـات العماليـة مـن أجـل اسـتخدامهم لضبـط الطبقـة العاملـة. ومـن ناحيـة أخـرى، كانـت قواعـد النقابـات تنمـو مـع شـعور جماهـير العـمال بضغـوط التضخـم وتدهـور ظـروف العمـل، مـما دفـع القـادة إلى اتخـاذ موقـف لخدمـة مصالحهـم.

لهـذا أكـدت الأطروحـات أن «الشـيوعيين يجـب أن ينضمـوا إلى تلـك النقابـات في جميـع البلـدان». وأضافـت أن كل محـاولات الانسـحاب مـن النقابـات، أو تنظيـم نقابـات بديلـة، تمثـل "خطـرا كبـيرا عـلى الحركـة الشـيوعية". وأن القيـام بذلـك يهـدد «... بتسـليم العـمال الأكـثر تقدمـا والأكـثر وعيـا إلى القـادة الانتهازيـين، مـما يخـدم مصالـح البرجوازيـة»[6].

وكـما هـو الحـال في جميـع التصريحـات المشـابهة لهـذه، هنـاك دائمـا خطـر التفسـير الميكانيـكي أحـادي الجانـب. هـل مبـدأ ضرورة انضـمام الشـيوعيين إلى النقابـات، يسـتبعد دائمـا وفي كل مـكان إمكانيـة الانفصـال عنهـا؟

منهـج لينـين مـرن، حيـث كان دائمـا يأخذ في الاعتبـار الظـروف الملموسـة التـي كان الشـيوعيون يواجهونهـا. ولهـذا السـبب تنص الوثيقـة نفسـها، بعـد بضـع فقـرات فقـط، عـلى أنـه: «... يجـب عـلى الشـيوعيين ألا يـترددوا أمـام الانشـقاق عـن تلـك المنظمات، إذا كان رفـض الانشـقاق يعنـي التخلـي عـن العمـل الثـوري في النقابـات العماليـة...». وفي الوقـت نفسـه:

«يجـب عـلى الشـيوعيين، في حالـة ظهـور ضرورة للانشـقاق، أن يناقشـوا باسـتمرار وباهتـمام مسـألة مـا إذا كان ذلـك الانشـقاق قـد يـؤدي إلى عزلهـم عـن الجماهـير العاملـة»[7].

كـما ناقـش المؤتمـر الثالـث أطروحـات حـول أسـاليب وأشـكال عمـل الأحـزاب

الشيوعية بين النساء والتي حددت التدابير الخاصة التي يجب أن تتخذها الأحزاب الشيوعية لتطوير عملها بين النساء.

كما سلط المؤتمر الضوء على التجذر المتزايد الذي كان يحدث بين الشباب وروج لأممية الشبيبة الشيوعية باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الأممية الشيوعية، وتحت رقابة قيادتها، وليس ككيان منفصل.

الأزمات والوعي

ناقشت مؤتمرات الأممية الشيوعية صعود وهبوط الصراع الطبقي على الصعيد العالمي. وقد كانت العلاقة بين الدورة الاقتصادية وبين الصراع الطبقي من بين القضايا المهمة التي نوقشت.

إن التفسير التبسيطي والميكانيكي لهذه العلاقة يمكن أن يؤدي إلى استنتاج مفاده أن الركود الاقتصادي يؤدي دائما إلى انتعاش الصراع الطبقي، وأن الانتعاش الاقتصادي ينتج استقرارا في النظام. لقد حذر قادة الأممية الفروع القطرية من هذا الخطأ، وحاولوا نقل فهمهم النظري إلى قادة وقواعد الأحزاب الشيوعية، لأنه يمكن أن تنجم أخطاء تقييمية خطيرة عن مثل ذلك الاستنتاج.

لقد أصبح ذلك الأمر بالغ الأهمية بشكل خاص في المؤتمر الثالث للكومنترن، الذي عقد في الفترة من 22 يونيو إلى 12 يوليوز 1921. كانت سنوات ما بعد الحرب مباشرة قد شهدت أزمة عميقة للرأسمالية، مقترنة بموجة ثورية اجتاحت أوروبا. لكن وبحلول عام 1921، نجح النظام الرأسمالي في تحقيق الاستقرار، وذلك بسبب خيانة الإصلاحيين. لقد أدى التحسن الذي عرفه الاقتصاد إلى إرباك عدد من القادة الشيوعيين، الذين تبنوا مقاربة ميكانيكية لديناميات الصراع الطبقي.

في تقريره إلى المؤتمر الثالث حول الأزمة الاقتصادية العالمية والمهام الجديدة للأممية الشيوعية، أوضح تروتسكي أنه «سيكون موقفا أحادي الجانب للغاية وخاطئا تماما» اعتبار أن «الأزمة تولد دائما فعلا ثوريا بينما تؤدي الطفرة، على العكس من ذلك، إلى تهدئة الطبقة العاملة»[8].

استند تروتسكي في تقريره إلى تجربة الصراع الطبقي في السنوات الأولى من القرن العشرين في روسيا، خلال فترات صعوده وهبوطه. وفي معرض رده على التبسيط المفرط، قال:

«يقول العديد من الرفاق إن حدوث تحسن [اقتصادي] في هذه الفترة سيكون خطيرا على ثورتنا. كلا، على الإطلاق. فبشكل عام، لا يوجد اعتماد تلقائي للحركة الثورية البروليتارية على الأزمة. **هناك فقط تفاعل ديالكتيكي**»[9]. [التشديد من عندنا]

أشار تروتسكي إلى أن هناك لحظات في الصراع الطبقي حيث يمكن للتراجع الشديد في الاقتصاد أن يثبط بالفعل روح النضال لدى الطبقة العاملة، وفقط عندما يبدأ الاقتصاد في التعافي يبدأ العمال في الشعور بالقوة في علاقتهم بأرباب العمل، وبالتالي -وعلى نحو متناقض على ما يبدو- يصير في إمكان الطبقة العاملة أن تشرع في النضال الكفاحي. إن تأثير الانحدار أو الانتعاش الاقتصادي على الصراع الطبقي ليس فوريا أو ميكانيكيا. يمكن أن يتأخر، لكنه يعتمد أيضا على السياق، وعلى ما حدث من قبل.

خلص تروتسكي إلى أنه بينما كان الرأسماليون يكافحون من أجل الوصول إلى توازن اقتصادي جديد، فإن محاولات القيام بذلك من شأنها في نهاية المطاف أن تضرب التوازن الاجتماعي والسياسي. وأن تراجع الصراع الطبقي كان من المحتم أن يفسح المجال في مرحلة ما لعودة مد الثورة العالمية. وبالتالي فإن مهمة الكومنترن هي الاستعداد للموجة التالية من خلال بناء أحزاب شيوعية قوية، بتكتيكات قادرة على كسب الجماهير.

"نظرية الهجوم"

كانت تلك المناقشة مهمة بشكل خاص في سياق "عملية مارس" التي كان الشيوعيون الألمان قد قاموا بها في وقت سابق من ذلك العام.

كانت ألمانيا تمر بموجات من الثورة والثورة المضادة منذ عام 1918. وبحلول تلك المرحلة، كان الحزب الشيوعي الألماني قد صار أكبر حزب شيوعي خارج روسيا، حيث بلغ عدد أعضائه أكثر من نصف مليون عضو.

لكن في مارس 1921، وعلى الرغم من تراجع الثورة، حاولت قيادة الحزب الشيوعي الألماني استنهاض موجة جديدة من الثورة بشكل مصطنع من خلال

هجمات على السكك الحديدية في وسط ألمانيا خلال "عملية مارس" عام 1921

Bundesarchiv, Bild 119-2303B / CC-BY-SA 3.0

تحركات الحزب وحده. حتى أن البعض ذهب إلى حد تفجير مقر لجمعية تعاونية للعمال وإلقاء اللوم على الشرطة.

سار ذلك على هدي ما يسمى بـ"نظرية الهجوم". حيث زعمت فئة من اليساريين المتطرفين أن الأحزاب الشيوعية لابد وأن تنتهج "تكتيكات هجومية" ـ بغض النظر عن الظرف الموضوعي- من أجل استنهاض العمال ودفعهم إلى الثورة.

لم يعط هؤلاء أي اعتبار للحركة الحقيقية للطبقة العاملة، وبالتالي فإن ذلك "التحرك" انتهى إلى كارثة كاملة. فقد اعتُقِل الآلاف، وتعرض الحزب الشيوعي الألماني للحظر، واستقال أكثر من مائتي ألف عضو أو انسحبوا من النشاط.

ومع ذلك فقد استمرت فئة من اليساريين المتطرفين داخل الحزب الشيوعي الألماني تدافع عن تلك التكتيكات باعتبارها صحيحة. وانضمت إليهم شخصيات بارزة في الأممية الشيوعية مثل راديك، وبوخارين، وزينوفييف، الذين رحبوا بـ"نظرية الهجوم". وأشاد "الشيوعيون اليساريون" في المجر، وتشيكوسلوفاكيا، وإيطاليا، والنمسا، وفرنسا "بتحرك مارس"، ورأوا فيه مثالا بطوليا ينبغي اتباعه.

لذلك كان لزاما على لينين وتروتسكي أن يصححا هذا الانحراف اليساري المتطرف في المؤتمر الثالث للكومنترن. فقد أوضحا أن شجاعة الشيوعيين وبطولتهم لا تكفيان لقيادة الثورة. وأنه من أجل تحقيق ذلك الهدف، لا بد من **كسب الجماهير**.

ولكي تتمكن الأحزاب الشيوعية من تحقيق تلك الغاية، فقد كانت تحتاج إلى قادة قادرين على تحليل الوضع الموضوعي، وتحديد المرحلة التي يمرون بها في السيرورة الثورية. ومن هنا تأتي أهمية الفهم الديالكتيكي للصراع الطبقي، والقدرة على دراسة وعي الجماهير في كل مرحلة معينة.

لا يمكن خلق الأوضاع الثورية بطريقة إرادوية. وبدلا من أن تحاول الأحزاب

اعتقال شيوعيين بعد مظاهرات "عملية مارس"

الشيوعية دفع الطبقة العاملة إلى الفعل، يتعين عليها أن تعرف كيف تحاور الجماهير بشكل حقيقي. وهذا يعني القدرة على التواصل معهم على أساس مستوى وعيهم الحالي، ورفعه إلى مستوى فهم الحاجة إلى الاستيلاء على السلطة. لكن فقط عندما ينضج الوضع الثوري بشكل كامل، ويفوز الشيوعيون بأغلبية الطبقة العاملة، يصبح من الممكن قيادة انتفاضة ناجحة.

وفي تلخيصه للمناقشة، أشار تروتسكي إلى أن «الغبي وحده هو الذي يمكنه تحويل كل الاستراتيجية الثورية إلى مجرد الهجوم»[10]. إن فن القيادة لا ينطوي فقط على توجيه القوات نحو التقدم، بل ويتضمن أيضا معرفة متى يجب التراجع. إن هذا قد يعني الفرق بين الانسحاب المنظم -والحفاظ على سلامة القوات لأجل المعارك المستقبلية- وبين الهزيمة الكاملة.

وفي النهاية، تم قبول موقف لينين وتروتسكي في المؤتمر الذي أصبح شعاره هو: "إلى الجماهير".

الجبهة المتحدة

كان لينين وتروتسكي يحاولان رفع مستوى الفهم بين قواعد الأممية الشيوعية، بدءا من قادة الفروع. ومن أهم المسائل التي حاولا غرسها في نفوسهم، هي مسألة كيف يمكن للحزب الثوري، الذي كسب الفئات المتقدمة من الطبقة العاملة -طليعة الطبقة العاملة-، أن يكسب الجماهير التي ما تزال متأثرة بالقادة الإصلاحيين للحركة العمالية.

عندما تندلع الأحداث التاريخية الكبرى، تبدأ شرائح واسعة من الجماهير في دخول ساحة النضال. وفي هذه السيرورة، تبدأ تلك الشرائح في وضع قادتها على محك الاختبار. فقادة النقابات العمالية الذين يرفضون النضال، والذين يستخدمون مواقعهم لكبح كفاحية العمال، يتم دفعهم جانبا في نهاية المطاف، ليحل محلهم قادة أكثر جرأة. وعلى الجبهة السياسية، يبحث العمال عن قادة لديهم إجابات عن أزمة النظام الرأسمالي، أو على الأقل يبدو أن لديهم الإجابات، قادة مستعدون لقيادة النضال ضد الرأسمالية.

لكن تطور الوعي الثوري لا يحدث بطريقة سحرية. إن الأمر هنا لا يتعلق بحدث واحد، بل بسلسلة من الأحداث التي تتكشف على مدى مرحلة مضطربة، مع فترات صعود وهبوط، حيث تأتي فترات اندلاع صراع طبقي مكثف تتبعها فترات من التراجع، وهو ما ينتج في النهاية طفرات في الوعي.

كما أن مختلف شرائح الطبقة العاملة تتحرك بإيقاعات مختلفة. فهناك شرائح متقدمة تبدأ في استخلاص النتائج قبل بقية

الطبقة. وهذه هي الشريحة التي يجب كسبها للحزب الثوري، وتنظيمها وتثقيفها وتوجيهها نحو كسب جماهير الطبقة العاملة.

يتعين علينا استبعاد فكرة أن الحزب الثوري قادر على كسب الجماهير في فترات انتعاش النظام الرأسمالي المطولة، أي عندما يكون في مقدور ذلك النظام منح تنازلات للطبقة العاملة. ففي مثل تلك الأوقات تهيمن الإصلاحية، كما كان عليه الحال في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين. إذ تفكر الشرائح الأوسع بمنطق أنه إذا كانت الرأسمالية قادرة على تقديم المكاسب، فلماذا الحاجة إلى الإطاحة بها؟

في مثل تلك الفترات، تتقلص قوى الماركسيين الحقيقيين إلى أعداد صغيرة تسير ضد التيار، وتكافح للحفاظ على تماسك قواها، والدفاع عن أفكار الماركسية الثورية. وحتى عندما يبدأ النظام الرأسمالي في الدخول في أزمة، بعد تلك الفترة الطويلة من الازدهار، يكون المزاج في البداية هو النظر إلى الوراء إلى "الأيام الجميلة السابقة" والبحث عن سبل للعودة إليها، بدلا من إدراك حتمية الثورة. إن الوعي البشري محافظ بطبيعته ويستغرق الأمر بعض الوقت حتى يلحق بالواقع الموضوعي.

وهذا ما يفسر لماذا في المراحل المبكرة، يكون الجناح الثوري للحركة مجرد أقلية، في حين أن الجزء الأكبر من الطبقة العاملة يبحث عما يبدو أنه الطريق الأسهل "الواقعي". ولماذا يكون القادة الإصلاحيون في البداية هم الذين يتمتعون بنفوذ أكبر على الجماهير.

ولهذا السبب تمت دعوة المؤتمر الرابع -الذي عقد بين 05 نوفمبر و05 دجنبر 1922- إلى تبني **أطروحات حول الجبهة المتحدة**، التي أشارت إلى "عودة الحياة للأوهام الإصلاحية ..." و"... السعي العفوي نحو الوحدة" داخل الطبقة العاملة[11]. لقد تغير شيء ما في الوضع الموضوعي، شيء مهم للغاية. وكما تمت الإشارة في المؤتمر السابق، فقد كانت موجة الثورة تتراجع، وكان النظام يشهد حدوث استقرار مؤقت.

ولاحظت الأطروحات أنه:

«... بينما تنمو بشكل مطرد الثقة في أولئك الأكثر صرامة ونضالية، في العناصر الشيوعية من الطبقة العاملة، فإن الجماهير العاملة ككل تشهد تطلعا غير مسبوق نحو الوحدة. إن الشرائح الجديدة من العمال عديمي الخبرة السياسية، الذين دخلوا للتو إلى ساحة النشاط، يتوقون إلى توحيد جميع الأحزاب العمالية وحتى جميع المنظمات العمالية بشكل عام، على أمل أن يعززوا بهذه الطريقة قوة المعارضة للهجوم الرأسمالي»[12].

في ذلك السياق، كانت الأحزاب الإصلاحية مثل حزب العمال في بريطانيا، والحزب الاشتراكي الديمقراطي في ألمانيا، والحزب الاشتراكي الإيطالي، ما تزال تتمتع بالهيمنة على شرائح واسعة من الطبقة العاملة. لذلك، طُرح السؤال حول كيفية كسب تلك الشرائح إلى الأفكار الشيوعية الثورية. لا يمكن القيام بذلك من خلال المواقف العصبوية والاكتفاء بالإدانات. يتطلب الأمر مهارة كبيرة في تطبيق تكتيك الجبهة العمالية المتحدة.

كان المفهوم الأساسي هو أنه لكسب ثقة قواعد المنظمات الإصلاحية والنقابات العمالية، كان من الضروري أن يُظهِر الشيوعيون استعدادهم للنضال في جبهة عمالية متحدة. والتي من شأنها أن تناضل من أجل المصالح المباشرة للطبقة العاملة، مع وضع مطالب أمام القادة الإصلاحيين ورفع المطالب الأكثر عمومية للطبقة العاملة ككل.

وبالتالي سيصير من الممكن، في خضم النضالات اليومية، إظهار من هم المناضلون الحازمون في الممارسة العملية، ووضع القادة المتعاونين مع الطبقة الرأسمالية على المحك، وبالتالي كسب القواعد العمالية إلى برنامج الشيوعيين الثوريين، برنامج الثورة الاشتراكية.

لقد تباينت طريقة تطبيق تكتيك الجبهة المتحدة من بلد إلى آخر، وذلك تبعا للظروف المحلية، ونقاط القوة والضعف لدى كل حزب شيوعي على حدة، مقارنة بالمنظمات الإصلاحية الجماهيرية. لكن الفكرة الأساسية ظلت كما هي.

في إيطاليا، تمت ترجمة هذه الفكرة إلى الضرورة الملحة لبناء لجان المقاومة ضد خطر الردة الرجعية المتزايد. ففي أكتوبر 1922، عين الملك موسوليني رئيسا للوزراء. لذلك فإن شعار الجبهة المتحدة كان يعني قيام الحزب الشيوعي الإيطالي باقتراح نضال موحد مع الحزب الاشتراكي والنقابات العمالية لمواجهة العنف الفاشي المتصاعد.

أما في بريطانيا، ونظرا لصغر حجم قوات الحزب الشيوعي البريطاني، فقد نصت الأطروحات على أن:

«الشيوعيين البريطانيين لابد وأن يشنوا حملة قوية من أجل قبولهم في حزب العمال. (...) ويتعين على الشيوعيين البريطانيين أن يبذلوا قصارى جهدهم، مهما كانت التكلفة، لتوسيع نفوذهم إلى القواعد العمالية، باستخدام شعار الجبهة الثورية المتحدة ضد الرأسماليين»[13].

لكن ولكي ينجح هذا التكتيك فإنه يتطلب أن «... تكون الأحزاب الشيوعية التي تنفذه قوية ومتحدة وتحت قيادة تمتلك الوضوح الإيديولوجي»[14]. وقد كان تحقيق تلك الغاية هي المهمة المركزية التي طرحها لينين وتروتسكي على كاهلهما خلال مؤتمرات الأممية.

لكنهما للأسف لم ينجحا دائما في تحقيق تلك الغاية. فجودة ومستوى ووعي العديد من قادة الأحزاب الشيوعية الشابة لم يكن في مستوى المهام التي كانت مطلوبة في ذلك الوقت.

ففي قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي، مثلا، لم تقبل شخصيات مثل بورديغا أبدا

نصيحة لينين وتروتسكي. وبذلك ساهمت في الانقسام المأساوي لقوى الطبقة العاملة الإيطالية، وذلك على وجه التحديد في الوقت الذي كانت فيه البرجوازية تشن هجوما مضادا. كانت الطبقة السائدة عازمة على تدمير الحركة العمالية الإيطالية بالكامل، وتفتيتها، وقتل الآلاف من قادتها المحليين الرئيسيين، واعتقال العديد من الآخرين، وأخيرا إقامة دكتاتورية وقحة لرأس المال في شكلها الأكثر وحشية: الفاشية.

أهمية القيادة

إذا نظرنا إلى الوراء إلى تلك الفترة، فإن ما يتبين بوضوح هو أن ما سمح للقوى الثورية الصغيرة بالتحول بسرعة إلى أحزاب ثورية جماهيرية هو التغيرات السريعة في الوضع الموضوعي. لقد مهد اندلاع الحرب العالمية الأولى والأزمة الاقتصادية الشديدة التي أعقبتها -مع البطالة الجماهيرية ومستويات التضخم المرتفعة- الطريق للأحداث الثورية.

لكن ومن دون نظرية ثورية مكتملة، فإن إمكانية بناء أحزاب ثورية جماهيرية قد تضيع أيضا.

"عاشت الأممية الثالثة! أهلاً وسهلاً بالرفاق!"
(1920)، دميتري مور

تؤكد السنوات الأولى للأممية الشيوعية على أهمية بناء كوادر الحزب الثوري المستقبلي قبل وقت طويل من اندلاع الأحداث الثورية. كما توضح أهمية القيادة داخل الحزب الثوري نفسه. وقد تجلى ذلك بوضوح بعد اندلاع ثورة فبراير 1917 في روسيا، عندما كانت ضغوط الإصلاحية هائلة.

وكما ذكرنا أعلاه، فإن جماهير الطبقة العاملة في المراحل الأولى من الثورة تسعى إلى طريق الإصلاحية الذي يبدو أنه الطريق الأكثر عملية والأكثر سهولة. ويفسر هذا لماذا كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون هم الذين سيطروا على الحركة في أوائل عام 1917. وقد أثر ذلك على قادة الحزب البلشفي داخل روسيا، الذين صاروا ينحنون تحت الضغط ويميلون نحو التسوية ودعم الحكومة المؤقتة.

لقد تطلب الأمر وجود قائد من عيار لينين -قائد ماركسي متمكن جدا، ويفهم بعمق المنهج الماركسي، الذي يتضمن تطبيق التفكير الديالكتيكي- لأجل توجيه الحزب في الاتجاه الصحيح، والتمسك بموقف ثوري ثابت، حتى عندما يعني ذلك السير ضد التيار.

وهكذا، فقد كان لينين الديالكتيكي هو الذي تمكن من مقاومة الضغوط بعد فبراير 1917 والتمسك بموقف ثابت. لقد كان بوسعه أن يرى المستقبل أبعد مما كان يستطيع القادة البلاشفة المحليون أن يروا. وكان بوسعه أن يرى الخيانة الحتمية التي كان القادة المناشفة سيرتكبونها، وكيف أن ذلك سيعني أنهم سيبدأون حتما في خسارة دعم الجماهير العاملة لهم، والتي كانت ستصبح أكثر انفتاحا على الموقف الثوري للبلاشفة. فلو لم يكن لينين على رأس الحزب آنذاك، لكان البلاشفة قد خسروا الفرصة التي سنحت لهم في أكتوبر.

وقد تأكدت أهمية القيادة بشكل سلبي مع هزائم الحركات الثورية في النمسا والمجر وألمانيا وإيطاليا وأماكن أخرى. إذ لأسباب عديدة متنوعة، لم يكن لدى أي من الأحزاب الشيوعية الشابة التي نشأت في تلك الفترة، مع الأسف، قادة من عيار لينين وتروتسكي. ومن هنا كانت المهمة العاجلة للكومنترن هي المساعدة في تطوير مثل تلك القيادة مع تطور السيرورة الثورية، وتصحيح الأخطاء المختلفة التي ارتكبت.

لقد كان لهزيمة الثورة في إيطاليا وغيرها من البلدان، وخاصة في ألمانيا، تأثير دراماتيكي على روسيا السوفياتية نفسها، مما أدى إلى عزل الثورة في بلد واحد. وقد كان ذلك هو العامل الموضوعي الأكثر أهمية في سيرورة الانحطاط البيروقراطي للحزب البلشفي، والذي كان أيضا نتاجا للتخلف الاقتصادي والثقافي للاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت.

لقد وجد ذلك الانحطاط انعكاسه في قيادة الأممية الشيوعية ذاتها. وخاصة بعد عجز لينين عن العمل، بسبب المرض في مارس 1923، لجأت اللجنة التنفيذية للكومنترن، بزعامة زينوفييف، بشكل متزايد إلى القيادة البيروقراطية لقادة الفروع القطرية. وفي نهاية المطاف، بحلول منتصف الثلاثينيات، تحولت الأممية الشيوعية من أداة للثورة العالمية إلى مجرد أداة لخدمة السياسة الخارجية للبيروقراطية الستالينية.

الدروس

هناك درسان يمكننا استخلاصهما من تجربة الأممية الشيوعية في أيام لينين. الأول هو أن الوضوح المطلق في الأفكار النظرية أمر ضروري. فإذا ارتكبت خطأً خطيرا في التحليل، سواء كان ذا طابع انتهازي أو عصبوي، فإنك ستدمر قواتك، ما لم يتم تصحيحه. ولهذا السبب نحن نكرس الكثير من الوقت والطاقة لتثقيف صفوفنا.

يمكن للأخطاء النظرية أن تؤدي إلى أخطاء خطيرة في الممارسة. إن النزعة اليسارية المتطرفة التي تبناها زعماء الحزب الشيوعي الإيطالي في الفترة 1921-1924، على سبيل المثال، لعبت دورا سلبيا في عزل الحزب الشاب عن الجماهير التي كانت ما تزال متأثرة بالقيادة الإصلاحية للحزب الاشتراكي الإيطالي. وفي ألمانيا ارتكبت أخطاء جسيمة. ولهذا فإن دراسة تلك الفترة، إلى جانب النصوص الكلاسيكية للينين، تشكل جزءا أساسيا من مجهودنا لبناء قواتنا اليوم.

والدرس الرئيسي الثاني هو أن الصرامة والحزم فيما يتعلق بالنظرية لابد أن يسيرا جنبا إلى جنب مع المرونة التكتيكية. لقد كان هذا جزءا لا يتجزأ من منهج الحزب البلشفي في عهد لينين، وقد تجسد في المناقشات والأطروحات والقرارات التي تبنتها المؤتمرات الأربعة الأولى للأممية الشيوعية، التي وصفها تروتسكي بأنها مدرسة للاستراتيجية الثورية.

لقد تم بناء الفروع القطرية في الأيام الأولى للأممية الشيوعية بطرق مختلفة، وذلك اعتمادا على الظروف الموضوعية الملموسة في كل بلد على حدة. ولابد لنا أن نتبع نفس المقاربة المنفتحة تجاه المنظورات المستقبلية اليوم. إن عدم القيام بذلك يعني خسارة الفرص التي قد تتاح لنا.

مع تغير الوضع الموضوعي، تحت تأثير أزمة الرأسمالية والصراع الطبقي العنيف الذي سينجم عن ذلك، ستتاح لنا العديد من الفرص لزيادة قواتنا بشكل كبير. لكن ولكي نتمكن من تحديد موقفنا بشكل صحيح، سوف نحتاج إلى حزب محنك، لديه فهم عميق للتاريخ، وفهم عميق للنظرية الماركسية، مع التحلي بالمرونة اللازمة والجرأة التي يتطلبها الوضع منا.

يجب أن يكون نداءنا الحاشد هو: العودة إلى لينين! بناء الأحزاب الشيوعية الثورية الآن! إلى الأمام نحو الثورة الاشتراكية العالمية!

المراجع على موقعنا
marxist.com/idom-47-references
أو قم بمسح رمز QR

إعلان الجمهورية أمام البرلمان في 12 نوفمبر 1918 (1918)، رودولف كونوبا

الحرب والثورة:
حالة النمسا 1914-1918

لقد هزت الثورة الروسية، عام 1917، العالم وأشعلت سلسلة من الأحداث الثورية على المستوى الأممي. في هذه المقالة، يسلط **كونستانتين كورن وإيمانويل توماسيلي** الضوء على الطريقة التي تطورت بها السيرورة الثورية في النمسا في نهاية الحرب العالمية الأولى، بما في ذلك نظرة عامة على الإضراب العام في يناير 1918، وكيف خان قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحركة.

بدأت مذبحة الحرب العالمية الأولى في صيف عام 1914. فإذا بحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي النمساوي ("SDAP")، الذي كان يُعتبر سابقا أحد "الأحزاب النموذجية" للأممية الثانية، وقد استسلم تماما لمزاج النزعة الوطنية وحمى الحرب التي اجتاحت إمبراطورية هابسبورغ.

كان دعم قادة حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي النمساوي لآلة الحرب الهابسبورغية بمثابة صدمة لمعظم قواعد الحزب. عملت القيادة، في الواقع، على شل الحزب، ومنعت أي نشاط يمكنه أن يزعج المجهود الحربي. لكن وبحلول أوائل عام 1915، بدأ عدد قليل من الاشتراكيين والنقابيين الشباب العمل السري، وتنظيم المقاومة ضد الحرب.

تعرفت مجموعة من الاشتراكيين الديمقراطيين اليساريين Linksradikalen- ("الراديكاليون اليساريون")- التي كانت قد تشكلت حديثا، بزعامة الاشتراكي الثوري الشاب فرانز كوريتشونر، على الجهود المبذولة في مؤتمر زيمروالد لتنظيم الأمميين المشتتين. وهكذا اتصلوا بالبلاشفة المتحلقين حول لينين في زيوريخ. وبدأوا في بناء معارضة منظمة داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية النمساوية، بعد المؤتمر الأممي الثاني المناهض للحرب في كينثال عام 1916.

أصبح الراديكاليون اليساريون النواة الأولى للحركة الشيوعية المستقبلية في النمسا. ومن خلال كارل راديك، تمكنوا من

إقامة الاتصال مع الراديكاليين اليساريين في ألمانيا، الذين كانوا يصدرون جريدة أممية وزعوها بعد ذلك في النمسا. تبنى الراديكاليون اليساريون الدعاية المنهجية بين صفوف الطبقة العاملة، واتخاذ موقف طبقي أممي بشأن الحرب. لكن مبادرتهم تعرضت للاضطهاد من قبل قيادة الحزب ورفضها الإصلاحيون اليساريون.

التجذر

لكن الحمى الوطنية الأولية لم تدم طويلا. فبحلول عام 1916 أصبح من الواضح أنه لا توجد نهاية في الأفق للحرب، التي كانت قد حصدت بالفعل أعدادا هائلة من القتلى. واجهت القوات في الخنادق رعبا لا يمكن تصوره، في حين كان العمال على "الجبهة الداخلية" يعانون من الجوع.

كان هذا هو السياق الذي قام فيه فريدريك أدلر -نجل فيكتور أدلر، الأب المؤسس لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي- بإطلاق النار على رئيس الوزراء النمساوي، في فعل احتجاجي يائس ضد الحرب. دافع أدلر عن نفسه في المحكمة بخطاب مؤثر، أدان فيه دعاة الحرب الإمبرياليين والدور السلبي الذي كان حزبه يلعبه تجاههم. ونتيجة لذلك أصبح بطلا في نظر الجماهير المنهكة من الحرب.

وقد دافع لينين، في رسالة بعثها إلى فرانز كوريتشونر، عن عمل أدلر الإرهابي ضد الإدانات الأخلاقية في صحافة حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي. لكنه أوضح أيضا أن «الهجمات الفردية، باعتبارها تكتيكات ثورية، غير مجدية وضارة».

كتب قائلا:

«كان أدلر ليقدم مساعدة أعظم بكثير للحركة الثورية لو أنه، دون خوف من الانشقاق، انتقل بشكل منهجي إلى الدعاية والتحريض غير القانونيين. [...] ليس الإرهاب، بل النشاط المنهجي المطول والتضحية بالنفس في الدعاية والتحريض الثوريين، والمظاهرات، وما إلى ذلك، ضد الحزب الانتهازي التابع، وضد الإمبرياليين، وضد الحكومات، وضد الحرب، هذا هو المطلوب»[1].

لا شك أن مثل تلك الدعاية والتحريض الثوريين كانا ليجدا أرضا خصبة. فالظروف القاسية التي لا تطاق في المصانع، حيث يضطر العمال إلى العمل لمدة 12 إلى 14 ساعة في اليوم، والنظام العسكري في أماكن العمل، والجوع واسع النطاق، كل ذلك أدى إلى تجذر الطبقة العاملة. ونتيجة لذلك، زاد بشكل كبير عدد الإضرابات، وأعمال الشغب من أجل الخبز، في شتاء 1916-1917.

"ثورة من أجل السلام"

كان لخبر الإطاحة بالقيصر نيكولاس الثاني، في فبراير 1917، تأثير ملهم في مختلف أنحاء أوروبا. فقد أظهر للمناضلين الأمميين أن الحرب يمكن أن تنتهي حقا من خلال الثورة.

كان هذا هو المزاج السائد في أحد أيام ماي 1917، فعندما انهار عامل من الجوع في مصنع 'Arsenal' الذي كان أكبر

ملصق لسند حرب حكومي من عام 1916
يمثل النسر ذو الرأسين الإمبراطورية النمساوية المجرية مع خلفية تصور فيينا

مصنع للأسلحة في فيينا والذي كان يعمل فيه عشرون ألف عامل- توقف العمال على الفور عن العمل. وفي غضون ساعات، انضمت إليهم أغلب المصانع في فيينا تضامنا معهم. وكان من الواضح أن الوضع الثوري بدأ يتطور.

خشيت الحكومة من أن تتكرر في النمسا الأحداث الثورية التي شهدتها روسيا. ولذلك قررت منح القادة الإصلاحيين في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي المزيد من حرية العمل، من أجل توفير صمام أمان لتنفيس بعض الضغوط المتراكمة في الأسفل. لقد استنتجوا أن الترويج للإصلاحيين على رأس الحركة المتنامية من شأنه أن يوجه طاقة الجماهير إلى قنوات "آمنة"، من وجهة نظر النظام. ولذلك سُمح لصحافة حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي بالدعوة إلى السلام، وتم دمج الحزب في برنامج الرعاية الاجتماعية للدولة.

نظم الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي، اجتماعا عاما "من أجل السلام"، في الحادي عشر من نوفمبر 1917. وكانت خطتهم تتلخص في دعوة 2000 مسؤول مختار من قادة الحركة العمالية إلى اجتماع في قاعة Konzerthaus للاستماع إلى زعماء الحزب.

لكن مع تطور الأحداث، نجح البلاشفة في الاستيلاء على السلطة في السابع من نوفمبر، الأمر الذي أحدث موجة من الصدمة في مختلف أنحاء العالم. وهو ما وصفته صحيفة *Arbeiter Zeitung* بأنه "ثورة من أجل السلام".

وبدلا من الاجتماع الذي كان سينظم في القاعة من طرف الحزب في الحادي عشر من نوفمبر، حضر 15.000 عامل في مسيرة صاخبة، اجتمعت في حلبة تزلج قريبة. ثم سار آلاف العمال في اتجاه مقر وزارة الحرب في فيينا -بعيدا عن سيطرة زعماء الحزب- للاحتفال بانتصار إخوانهم وأخواتهم الروس. وكان ذلك مظهرا آخر من مظاهر الثورة المتنامية في المجتمع.

بريست ليتوفسك

لقد أعطى مرسوم البلاشفة بشأن السلام، الذي أصدروه فور توليهم السلطة، الأمل للجماهير في جميع أنحاء أوروبا. وبدأت مفاوضات السلام اللاحقة في بريست ليتوفسك (بريست الحالية، بيلاروسيا) بين روسيا السوفياتية وبين "قوى المركز" (ألمانيا، والنمسا والمجر، والإمبراطورية العثمانية، وبلغاريا) في 22 دجنبر. وكانت تلك المفاوضات موضوعا ساخنا طيلة أسابيع تالية.

لقد استخدم تروتسكي، الذي مثل روسيا السوفياتية في بريست ليتوفسك، الحدث بمهارة كمنصة لفضح المصالح الافتراسية للإمبرياليين من جميع الأطراف.

وفي حين دعا البلاشفة إلى "سلام ديمقراطي"، دون ضم أو تعويضات، فقد سعى إمبرياليو قوى المركز، وخاصة الجنرالات الألمان الأكثر ثقة، إلى الاستيلاء على كل ما يمكنهم من دولة العمال الجديدة. وعلى هذا النحو، انكشفت أمام أعين الملايين كل أحاديث الإمبرياليين عن "الدفاع عن الوطن" و"حماية حق الأمم الصغيرة في تقرير مصيرها" على أنها مجرد خدعة.

كان لهذه الاستراتيجية بالتأكيد تأثير هائل على عقول جماهير العمال في النمسا وألمانيا، الذين تابعوا التقارير الواردة من بريست ليتوفسك باهتمام كبير.

كان لينين وتروتسكي يعتقدان اعتقادا راسخا أن الثورة الروسية لم تكن سوى نقطة البداية للثورة العالمية. فقد انقطعت السلسلة عند أضعف حلقاتها، لكن وبسبب تأثير الحرب الإمبريالية والثورة الروسية نفسها، فإنها ستستمر في الانقطاع في بلدان أخرى.

من الواضح أن إمبراطورية هابسبورغ كانت هي المرشحة التالية للثورة. ففي شتاء 1917-1918، بلغ النظام حدوده المادية. فقد استهلكت ثلاث سنوات ونصف من الحرب معظم الموارد الاقتصادية للإمبراطورية النمساوية المجرية، وأضافت المسألة القومية غير المحلولة -وخاصة اضطهاد الشعوب السلافية- عوامل أخرى لسقوطها الحتمي. كانت النمسا في حاجة ماسة إلى الخروج من الحرب من أجل حماية النظام. لكن لا حلفائها الإمبرياليين (ألمانيا)، ولا أعداؤها (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة) كانوا ليقبلوا بخروج النمسا-المجر من الحرب بمفردها.

ونظرا لذلك الانسداد في القمة، والضغوط لتحقيق السلام من الأسفل، فقد كانت المفاوضات في بريست ليتوفسك بمثابة محفز للسيرورات الثورية في النمسا.

التوترات تصل إلى نقطة الغليان

في شتاء 1917-1918، لعب اليساريون الراديكاليون دورا مهما في تنظيم الاحتجاجات المناهضة للحرب في فيينا. صارت مجموعتهم، التي كانت تضم حوالي 100 رفيق، نقطة محورية لحركة الشباب الثورية، وتمكنوا من بناء روابط قوية مع شبكة من المناضلين العماليين في صناعة الأسلحة.

بدأوا معا في التخطيط لإضراب عام في 24 يناير بهدف إنهاء الحرب. وارتباطا بذلك شرعوا في نشر فكرة تشكيل مجالس العمال لتكون أجهزة للسلطة العمالية، على غرار السوفييتات الروسية. ولهذا السبب أسسوا، في دجنبر 1917، منظمة تسمى "مجلس العمال والجنود". لكن الأحداث تطورت بشكل أسرع مما تصورته المجموعة.

أثارت محاولة الحكومتين الألمانية والنمساوية إفساد محادثات السلام مع روسيا استياء هائلا. واستجابة للضغوط المتزايدة من الأسفل ومن أجل السيطرة على المزاج الغاضب في المصانع، نظم حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي النمساوي، مسيرات حاشدة من أجل السلام في 13 يناير 1918. وعلى الرغم من كل الجهود

التي بذلتها القيادة للسيطرة على الموقف، فقد اندلع انفجار اجتماعي في المصانع في اليوم التالي.

علق تروتسكي لاحقا بشكل إيجابي على تلك الأحداث، حيث قال:

«خلال فترة توقف المفاوضات، التي استمرت حوالي عشرة أيام، تطورت في النمسا حالة من الغليان الهائل واندلعت إضرابات عمالية. كانت تلك الإضرابات بمثابة أول اعتراف بطريقتنا في إجراء مفاوضات السلام، وأول اعتراف تلقيناه من بروليتاريا قوى المركز بشأن مطالب الضم العسكرية الألمانية»[2].

كان من الواضح أن السيرورة الثورية قد بدأت تتطور.

إضراب يناير

في 14 يناير 1918، تم تخفيض حصص الدقيق، التي كانت منخفضة أصلا، مرة أخرى إلى النصف. فكانت هذه الخطوة، بالنسبة للجماهير، بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير.

عندما انتشرت أخبار ذلك في الساعات الأولى من الصباح في بلدة فينر نويشتات -وهي بلدة صناعية تقع جنوب فيينا والتي كانت أحد معاقل الراديكاليين اليساريين- رفض العمال في مصنع دايملر للسيارات تشغيل الآلات، واجتمعوا في ساحة المصنع. كان ردهم بالإجماع هو: "إلى الإضراب! ". ثم اتجهوا إلى وسط المدينة، حاملين لافتات تدعو إلى السلام الفوري و"إسقاط الحكومة"، وبدأوا في التجمع في مجالس العمال، "Arbeiterräte"، التي كانت في الجوهر النسخة النمساوية للسوفييتات.

تم انتخاب لجنة إضراب واتخذ قرار بالتوجه إلى المصانع الأخرى في المدينة والمناطق المجاورة. وفي غضون ساعات، انخرط 10 آلاف عامل من المنطقة الصناعية لجنوب النمسا السفلى في الإضراب. وأصبحت تلك المنطقة تُعرف فيما بعد باسم "بيت لحم الشيوعية النمساوية".

ظهرت مجالس العمال في كل مكان. والنضال الذي انطلق كنضال اقتصادي تطور خلال يوم واحد إلى حركة جماهيرية سياسية تدعو إلى إنهاء الحرب بأية وسيلة. نشر الشباب الراديكاليون اليساريون خبر الإضراب في المصانع في فيينا، وحتى في برلين. وفي منشورهم "الشعب ينتفض! "، الذي نُشر في 16 يناير، كتبوا:

«إن الجماهير لا تريد النصر ولا مجد الأسلحة، بل تريد السلام الفوري، السلام بأية وسيلة ضرورية. إن مصالح الجماهير لا تمثلها الحكومة، بل يمثلها لينين وتروتسكي بمبادئهما الأممية المؤكدة على حق الشعوب في تقرير مصيرها»[3].

وقد تضمن منشور الراديكاليين اليساريين برنامجا يتألف من أربعة مطالب:

1. الوقف الفوري لإطلاق النار على جميع الجبهات!
2. يجب أن يكون مندوبو السلام في أي مفاوضات منتخبين من قبل الشعب!
3. يجب إلغاء عسكرة جميع أماكن العمل على الفور! يجب إزالة جميع القيود المفروضة على حق تكوين الجمعيات وكل الحريات السياسية الأخرى!
4. يجب إطلاق سراح فريدريك أدلر وجميع السجناء السياسيين الآخرين على الفور!

كما دعا المنشور بجرأة

«عمال جميع البلدان الأخرى [...] إلى الاتحاد حول العلم الأحمر للثورة الروسية! [...] لا تثقوا في "القادة" العماليين الوطنيين. انتخبوا مجالس العمال كما في روسيا وسيكون النصر من نصيب القوة الجماهيرية للبروليتاريا!»[4].

كانت أفكار تروتسكي في بريست ليتوفسك تجد بوضوح صدى لها.

كان هذا هو المزاج السائد إلى درجة أن إمبراطور النمسا، كارل الأول، أرسل، في 17 يناير، البرقية التالية إلى وزير الخارجية، جراف تشيرنين، في بريست ليتوفسك:

«يجب أن أؤكد لك مرة أخرى بكل قوة أن مصير الملكية والسلالة بأكملها يعتمد على إبرام السلام في أقرب وقت ممكن، في بريست ليتوفسك. أما بالنسبة لأحلام كورلاند وليفونيا وبولونيا، فإنه لا يمكننا قلب الوضع هنا. إذا لم يتحقق السلام، فستكون هناك ثورة، بغض النظر عن مقدار ما يمكن أكله. إن هذا تحذير خطير في وقت خطير»[5].

الإصلاحيون يستولون على الحركة

كانت قيادة الحركة العمالية النمساوية، خلال الفترة التي سبقت الحرب، قد نجحت في بناء نفوذ سياسي هائل. لكن ذلك النفوذ اهتز في ظل الظروف الجديدة للحرب والتجذر المتزايد، الذي لم يجد تعبيرا كافيا عنه في المنظمات الجماهيرية التقليدية.

وضع ذلك القيادة الاشتراكية الديمقراطية في موقف صعب. فكيف لها أن تستعيد السيطرة على تلك الحركة غير المتوقعة وانتزاعها من العناصر الثورية التي كانت تصعد إلى المقدمة؟ في السادس عشر من يناير، وبعد يومين من التردد، قررت القيادة ركوب ظهر النمر ونادت بتوسيع حركة الإضراب إلى جميع أنحاء النمسا، والدعوة إلى انتخاب مجالس العمال في جميع المناطق الصناعية. كان شعارها الرئيسي هو: "إنهاء الحرب في أقرب وقت ممكن"[6]. ولم يكن ذلك الشعار في حد ذاته يتعارض مع احتياجات النظام نفسه.

بحلول 18 يناير، ارتفع عدد العمال المضربين إلى 100.700 في فيينا، و122.622 في النمسا السفلى، وانتشرت الإضرابات إلى النمسا العليا، وستيريا، وبودابست، وكراكوفيا، وبرنو، وتريبست، وغيرها. وبحلول التاسع عشر من يناير، شارك في الإضراب 750 ألف عامل. لكن اليساريين الراديكاليين لم تكن لديهم القوة اللازمة لقيادة حركة بذلك الحجم.

كانت الظروف الموضوعية متوفرة في كل مكان، ليس فقط لنجاح الإضراب العام، بل وأيضا لثورة ناجحة. وكان من بين المقولات الشعبية في تلك الأيام: "دعونا نتحدث باللغة الروسية مع حكامنا!".

لكن مجالس العمال التي كانت قد تشكلت حديثا صارت تحت سيطرة الإصلاحيين. كان أغلب الممثلين يُنتخَبون في أماكن العمل، وبالتالي كانوا يعكسون المزاج السائد على الأرض. لكن بيروقراطيات حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي والنقابات العمالية أرسلت أيضا مسؤوليها وقادتها مباشرة إلى تلك المجالس، الأمر الذي أعطى الإصلاحيين ميزة واضحة.

تآخي الجنود الألمان والروس بعد الهدنة على الجبهة الشرقية في دجنبر/كانون الثاني 1917

خيانة الثورة

في وقت لاحق، كتب أوتو باور، الزعيم النظري للإصلاحيين اليساريين (الماركسيين النمساويين)، في تقييمه للثورة النمساوية، قائلا:

«لقد أردنا الإضراب كمظاهرة ثورية كبيرة. لكننا لم نكن نريد تصعيد الإضراب إلى ثورة فعلية»[7].

قيادة مجموعة الماركسيين النمساويين، وباعتبارها تيارا برجوازيا صغيرا، رفضت القطيعة الثورية مع الرأسمالية، وفعلت كل ما في وسعها لإبقاء البرجوازية في السلطة. لقد كان ذلك توجها سياسيا واعيا، كما أشار لينين منذ بداية الحرب. ورغم أنهم لعبوا لفترة وجيزة بالثورة الروسية كوسيلة للحفاظ على استقرار نظام هابسبورغ، فإنهم رأوا في البلشفية، في نهاية المطاف، تهديدا لموقعهم القيادي داخل الحركة العمالية، لابد من محاربته بكل الوسائل.

حاول باور تبرير موقفه المعادي للثورة بحجة أنه لو أن الثورة نجحت في النمسا، لكانت ستقابل على الفور بغزو من القوات الألمانية. لكن في الواقع، كان وصول الطبقة العاملة النمساوية إلى السلطة سيخلف تأثيرا عظيما بين الطبقة العاملة في ألمانيا، حيث كانت الثورة تتطور أيضا. وكان النداء الطبقي للقوات الألمانية والعمال لكي يتبعوا خطاهم سيخلف تأثيرا مزلزلا. وكان إرسال القوات الألمانية في مثل تلك الظروف سيعجل بتسريع السيرورة الثورية.

وفي مواجهة انتفاضة العمال، أدرك القادة الإصلاحيون أنه لابد لهم أن يقدموا بعض النتائج لأجل تهدئة العمال. فقاموا، في السابع عشر من يناير، بنشر إعلان موجه إلى الحكومة، على غرار برنامج اليساريين الراديكاليين، يتضمن أربعة مطالب:

1. ينبغي للمفاوضات السلمية ألا تفشل بسبب المطالب الترابية، ولابد أن تجري بشفافية وتحت "تأثير" ممثلي الطبقة العاملة.
2. إعادة تنظيم إمدادات الغذاء للسكان.
3. إضفاء الطابع الديمقراطي على انتخاب البلديات.
4. وضع حد لعسكرة أماكن العمل[8].

بدا هذا البرنامج مشابها لبرنامج اليساريين الراديكاليين، لكنه لم يطرح المسألة الرئيسية المتعلقة بالسلطة. في الواقع، كانوا قد اتفقوا بشكل مسبق على تلك المطالب مع الحكومة، التي كانت مستعدة لقبولها -ووعدت "بمزيد من المفاوضات" حول تلك القضايا- في مقابل إيقاف الاشتراكيين الديمقراطيين للإضراب.

في 21 يناير -اليوم الثامن للحركة- صوت مجلس العمال في فيينا، الذي كان الإصلاحيون يسيطرون عليه، بأغلبية كبيرة لصالح إنهاء الإضراب. ومع ذلك، فقد كانت هناك مناقشات حادة في العديد من الاجتماعات، حيث كان العديد من العمال غاضبين من اقتراح إلغاء الإضراب في تلك المرحلة الحرجة، بينما هم يريدون إنهاء الحرب على الفور. استمر عدد من المصانع في الإضراب لعدة أيام، ودخلت مدن جديدة إلى الحركة، لكنها تركت معزولة بسبب تلك الخيانة.

تم كسر الإضراب وتعرض زعماء اليسار الراديكالي للسجن أو أُرسلوا إلى الجبهة. واتهموا بـ "الخيانة العظمى" لدعوتهم إلى "الإطاحة بالنظام القائم والدولة النمساوية".

ومع تفكك اليسار الراديكالي، لم تعد هناك قوة سياسية قادرة على مساعدة العمال في استخلاص الاستنتاجات الضرورية من تلك الهزيمة. وقد خرجت الحركة الثورية النامية عن مسارها بسبب موجة القمع التي مارستها الدولة، والتي كانت لها عواقب وخيمة على سيرورة تشكيل الحزب الشيوعي خلال الأشهر اللاحقة. واستعادت القيادات الاشتراكية الديمقراطية سيطرتها على الطبقة العاملة في ذلك الوقت.

كانت نهاية إضراب يناير بمثابة انتكاسة للحركة الثورية، لكنها لم تكن نهاية القصة. فقد ظهر عمق السيرورة الثورية خلال الأيام الأولى من فبراير 1918، مع تمرد البحارة في ميناء كاتارو على البحر الأدرياتيكي (المعروف الآن باسم "كوتور"، في الجبل الأسود). كان ذلك التمرد -تحت الراية الحمراء- متأثرا بشكل واضح بإضراب يناير، لكنه جاء عندما كانت حركة الإضراب قد انتهت بالفعل. وفي يونيو اندلعت موجة جديدة من الإضرابات والتمردات في عدة مناطق من النمسا.

العامل الذاتي المفقود

كان إضراب يناير بمثابة تغيير كبير في الطريقة التي تنظر بها الاشتراكية الديمقراطية النمساوية إلى الثورة الروسية. ومنذ ذلك الحين، قدموا أنفسهم باعتبارهم أعداء صريحين للبلشفية.

كارل كاوتسكي، الزعيم النظري للجناح "الوسطي" للاشتراكية الديمقراطية والناقد لثورة أكتوبر، أصبح لسان حال الماركسيين النمساويين. وفي عام 1918، شن هجوما قويا على البلاشفة بحجة أن:

«الثورة البلشفية كانت مبنية على افتراض أنها ستكون نقطة البداية لثورة أوروبية عامة، وأن المبادرة الجريئة لروسيا ستستدعي البروليتاريا في كل أوروبا للنهوض [...].

ووفقا لهذه النظرية، فقد شكلت الثورة الأوروبية أفضل دفاع عن الثورة الروسية... والثورة التي ستجلب الاشتراكية في أوروبا سوف تكون أيضا الوسيلة لإزالة العقبات التي تحول دون تحقيق الاشتراكية في روسيا، والتي خلقها التخلف الاقتصادي في ذلك البلد.

لقد كان كل هذا مدروسا بشكل منطقي للغاية، ومبنيا على أسس سليمة، شريطة أن نفترض أن الثورة الروسية لابد وأن تفك قيود الثورة

إعلان الجمهورية الألمانية النمساوية، 12 نوفمبر 1918

الأوروبية. لكن ماذا لو لم يحدث ذلك؟ إن ذلك الافتراض لم يتحقق بعد»[9].

لقد أخفى كاوتسكي بشكل مخز حقيقة أن الثورة كانت قد انتشرت بالفعل إلى البلدان الأوروبية المجاورة لروسيا، كما تنبأ البلاشفة. وأن الزعماء الإصلاحيين للحزب الاشتراكي الديمقراطي هم الذين خانوا الثورة بشكل متعمد عندما اندلعت لأول مرة في النمسا في يناير 1918. وهو ما فعلوه مرة أخرى في الأشهر الموالية، كلما تطورت الثورة في النمسا وألمانيا.

أدى تدخل الجماهير في النهاية إلى إنهاء الحرب. ففي خريف عام 1918، كانت جماهير الجنود والعمال والفلاحين من مختلف أركان الإمبراطورية قد سئمت بشكل كامل، ولم يعد لديها الاستعداد للموت من أجل الإمبراطور. بدأ الجنود يفرون بأعداد كبيرة. وانهارت سلسلة قيادة الجيش وانفصلت مختلف القوميات التي كانت مضطهَدة في ظل الإمبراطورية وشكلت دولها الخاصة، مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر ومملكة الصرب والكروات والسلوفينيين (التي أعيد تسميتها فيما بعد بيوغوسلافيا).

في فيينا، سيطر عشرات الآلاف من الجنود على حياة المدينة في الأيام الأخيرة من الحرب. وطالبوا بظروف أفضل ورفضوا الانصياع لسلطة الضباط. وتم تشكيل جيش جديد، Volkswehr ("ميليشيا الشعب")، الذي كان تحت رقابة مجالس الجنود. في ذلك الوضع أيضا، أخذ العمال زمام المبادرة، وأضربوا ونظموا مظاهرة حاشدة في وسط المدينة للمطالبة بإنهاء النظام الملكي.

وبسبب الخوف من الجماهير، انتخب نواب النمسا الناطقة بالألمانية الاشتراكي الديمقراطي، كارل رينر، ليكون مستشارا للدولة الألمانية النمساوية التي كانت قد تشكلت حديثا، وفي 12 نوفمبر، تم إعلان قيام جمهورية ألمانيا النمساوية الجديدة من مبنى البرلمان في فيينا، وذلك بعد ثلاثة أيام من إعلان الجمهورية الألمانية في برلين.

في الواقع كانت السلطة في أيدي الطبقة العاملة، التي كانت مسلحة. لكن ومع وصول الاشتراكيين الديمقراطيين في النمسا وألمانيا إلى الحكم، بذل قادتهم الإصلاحيون كل ما في وسعهم لإعادة السلطة إلى الرأسماليين، وحصر الثورة في تأسيس جمهورية ديمقراطية والوعد بتحقيق الوحدة في نهاية المطاف في جمهورية ألمانية واحدة.

ولذلك فإن المشكلة لم تكن في افتقار عمال أوروبا إلى الفرص الثورية للاستيلاء على السلطة، بل كانت في الافتقار إلى العامل الذاتي، أي غياب أحزاب ثورية مدربة وقادة قادرين على توجيه تلك الثورات إلى ما هو أبعد من خيانات الإصلاحيين الحتمية.

ولذلك فقد كان العمل على بناء تلك القيادة هي المهمة العاجلة التي حددها لينين وتروتسكي لنفسيهما عند تأسيس الأممية الثالثة.

المراجع على موقعنا
marxist.com/
idom-47-references
أو قم بمسح رمز QR

عندما غزت الإمبريالية الأمريكية روسيا السوفياتية

فيبعد انتصار البلاشفة في أكتوبر 1917، بذل الإمبرياليون في العالم قصارى جهدهم لخنق دولة العمال الجديدة. وبالإضافة إلى قيامهم بتسليح وتمويل وتسليح الجيوش البيضاء المعادية للثورة، فقد أرسلوا قوات مباشرة للتدخل في الحرب الأهلية المستعرة. في هذه المقالة، يكشف الرفيق **جون بيترسون** عن التاريخ غير المعروف لتورط الإمبرياليين الأمريكيين، وكيف رد البلاشفة على أساس طبقي أممي للفوز بالحرب.

في صيف عام 1918، كانت الثورة الروسية عند مفترق طرق. تمت الإطاحة بالقيصر نيكولا الثاني، وإسقاط الحكومة المؤقتة، وتقدمت الحكومة السوفياتية الجديدة بمناشدة للجماهير المتعبة من الحرب في العالم من أجل "سلام عادل وديمقراطي ... بدون إلحاقات وبدون تعويضات"[1]. لكن الحرب العالمية الأولى كانت ما تزال مستعرة، وكانت الثورة المضادة تكتسب الزخم.

في الثالث من مارس من ذلك العام، فرضت الإمبريالية الألمانية معاهدة بريست ليتوفسك على الجمهورية السوفياتية، مما أدى إلى خسارة الأخيرة لـ 34% من سكانها، و54% من أراضيها الصناعية، و26% من سككها الحديدية، و89% من حقول الفحم. وتحت ذريعة إبعاد مخازن الذخيرة الروسية عن أيدي الألمان، نزلت القوات البريطانية في اليوم التالي في مورمانسك.

كان "حلفاء" روسيا السابقون عازمين على إراقة الدماء، لأنهم كانوا مدركين تمام الإدراك للتهديد الذي تشكله الثورة على علاقات الملكية البرجوازية. وكان ونستون تشرشل مصرا على أن البلشفية لابد وأن "تخنق في مهدها". فتوالت "الحملات" الإمبريالية، الواحدة منها تلو الأخرى، حيث انضمت 21 فرقة عسكرية من 16 بلدا إلى الجهود المضادة للثورة التي كانت تبذلها الجيوش البيضاء الفاشية.

الحصار والتفوق العسكري الهائل لقوى الثورة المضادة جعل قضية الشيوعية تبدو ميؤوسا منها. لكن الجماهير الروسية كانت تمتلك شيئا لم تمتلكه أي من الجيوش الإمبريالية: الروح الثورية التي لا تقهر والتحرر الحقيقي.

لا شك أن الشعب السوفياتي قام بعدد لا يحصى من الأعمال العسكرية الرائعة والتضحيات المدنية. إلا أن السلاح الأساسي

كلاب الوفاق *(1919)*، فيكتور ديني. العم سام وفرنسا وبريطانيا يمسكون بمقود الجنرالات البيض دينيكين وكولتشاك ويودينيتش.

طبقي، ودعوا إلى الوحدة البروليتارية ضد مستغِليهم المشتركين. ومرة بعد مرة، كانت الروح المعنوية للجنود العاديين في الجيوش الإمبريالية ضعيفة إلى الحد الذي اضطرها في النهاية إلى الانسحاب.

النفاق الإمبريالي

على الرغم من أن شعار "أمريكا أولا" الانعزالي قد أصبح رائجا مرة أخرى، فإن الرئيس وودرو ويلسون هو أول من استعمل ذلك الشعار خلال حملته الرئاسية عام 1916، عندما وعد بإبقاء الولايات المتحدة خارج الحرب. ولكن مع صراع "الحلفاء" و"قوى المركز" لتحديد من سيحكم أوروبا والمستعمرات وأعالي البحار، رأت الإمبريالية الأمريكية فرصة ذهبية لوضع إبهامها الثقيل على ميزان العلاقات الدولية.

ونظرا للدمار الذي حل بأوروبا، فقد ازدهر الاقتصاد الأمريكي بفعل إغراق الجانب الآخر من المحيط الأطلسي بالمنتجات الفلاحية والسلع المصنعة. وبسبب تدمير مساحات شاسعة من القارة، خرجت الولايات المتحدة في نهاية المطاف من الحريق باعتبارها أكبر دائن في العالم، وقوة اقتصادية وتكنولوجية ودبلوماسية وعسكرية وثقافية كبرى.

في أبريل 1917، أعلن الأمريكيون الحرب على ألمانيا. وبدخولهم الحرب في تلك المرحلة المتأخرة، كانوا يأملون في "التطهير" بعد سنوات من المذابح. وكانت هناك أيضا مسألة تتعلق بقروض بلغت نحو 10 مليارات دولار قُدِّمت للحلفاء أثناء الحرب، والتي كانت لتتعرض للخطر في حالة انتصار ألمانيا. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يدخلوا المعركة بعد أسابيع فقط من ثورة فبراير، التي أطاحت بالقيصر وهددت بإخراج روسيا من الحرب على الجبهة الشرقية.

كان الهدف المعلن للأميركيين هو هزيمة القيصر الألماني، مع ضمان الاستقرار وقطع الطريق على خطر الثورة في جميع أنحاء أوروبا. لكن وبحلول أكتوبر من ذلك العام، اتخذت الأحداث في روسيا منعطفا أكثر خطورة من وجهة نظر مصالح الإمبريالية والنظام الرأسمالي: كان البلاشفة في السلطة.

بعد وقت قصير من توليه زمام الأمور، أصدر لينين مراسيمه الشهيرة بشأن السلام والأرض والقوميات، ونشر تروتسكي الخطط السرية للحلفاء لتقسيم العالم فيما بينهم. كل ذلك وضع ضغوطا كبيرة على ويلسون، الذي كان يتظاهر بأنه رئيس "محب للسلام".

في 8 يناير 1918، أصدر ويلسون "مبادئه الأربع عشرة"، والتي حددت رؤية الإمبريالية الأمريكية لـ "نظام عالمي جديد". وإلى جانب الخطاب الليبرالي الأجوف حول السلام والديمقراطية، تطرقت النقطة السادسة إلى روسيا على وجه التحديد، حيث جاء فيها:

«الجلاء عن كل الأراضي الروسية وتسوية كل المسائل التي تؤثر على روسيا على النحو الذي يضمن أفضل تعاون وأكثر حرية من جانب الأمم الأخرى في العالم في الحصول على فرصة غير مقيدة لتقرر بشكل مستقل في تطورها السياسي وسياساتها الوطنية وضمان الترحيب الصادق بها في مجتمع الأمم الحرة في ظل المؤسسات التي تختارها بنفسها؛ وأكثر من الترحيب، **تقديم المساعدة أيضا من كل نوع قد تحتاجه** وقد ترغب فيه. إن المعاملة التي ستمنحها الأمم الشقيقة لروسيا في الأشهر القادمة ستكون بمثابة اختبار حاسم لنواياهم الطيبة، وفهمهم لاحتياجاتها باعتبارها منفصلة عن مصالحهم الخاصة، وتعاطفهم الذكي وغير الأناني»[2].

لكنه لم يحدد نوع المعاملة التي كان من المقرر أن يمنحها للروس، على الرغم

جنود أمريكيون من فوج المشاة الحادي والثلاثين يسيرون بالقرب من فلاديفوستوك، روسيا، 27 أبريل 1919

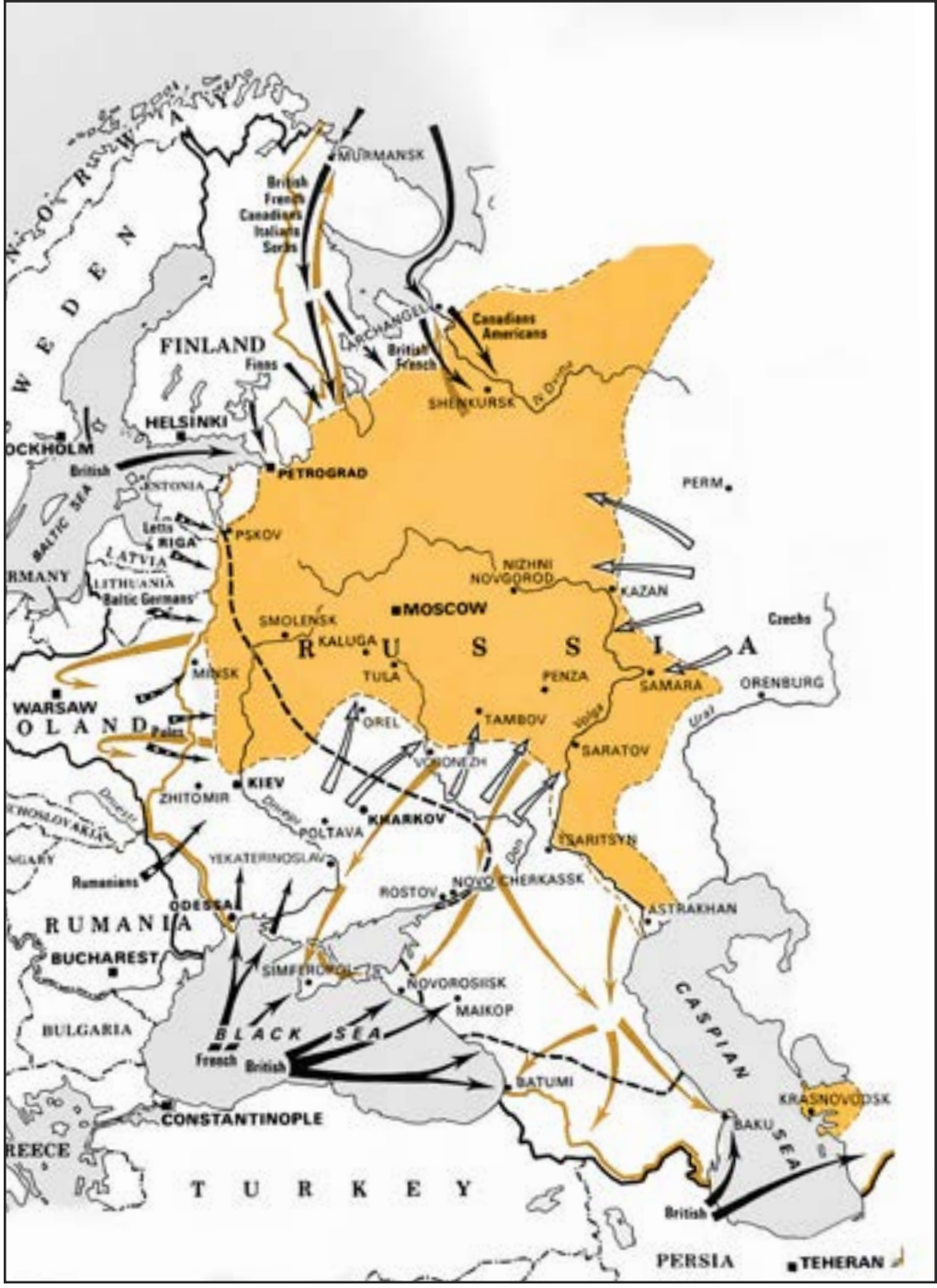

من أن التدخلات العسكرية المتعددة التي قام بها ويلسون ضد المكسيك أثناء ثورتها التي كانت ما تزال جارية، قد قدمت بعض المؤشرات. وفي الوقت نفسه الذي صدرت فيه تلك الكلمات النبيلة، كانت خطط الطوارئ لإخماد الجمهورية السوفياتية قيد التنفيذ بالفعل. وكما قال السفير الأمريكي في فرنسا آنذاك فإن:

«تكفي ثلاث أو أربع فرق يابانية أو أمريكية لتدمير سلطة البلاشفة»[3].

ووفقا للمؤرخ ويليام. أ. ويليامز فإن:

«كان القادة الأمريكيون قد قرروا التدخل باعتباره عملية مناهضة للبلاشفة في غضون خمسة أسابيع من اليوم الذي تولى فيه لينين وتروتسكي السلطة»[4].

وكما هو الحال غالبا مع الغزاة الإمبرياليين -سواء بفعل السذاجة أو الكلبية- فقد اعتقد الأمريكيون أنهم سيستقبلون بالترحاب كمحررين وأن السكان المحليين سوف يثورون ضد البلاشفة، كما كتب السفير فرانسيس إلى واشنطن:

«تظهر المعلومات من جميع المصادر عدم الرضا عن [الحكومات] السوفياتية وتشير إلى أن [تدخل] الحلفاء سيكون موضع ترحيب من قبل [الشعب] الروسي»[5].

في 17 يوليوز 1918، وافق ويلسون على "تدخل عسكري محدود". وبحلول الثالث من غشت، أعلنت الحكومة الأمريكية أنها تتفق تماما مع القوى الإمبريالية الأخرى في سياستها التدخلية في روسيا.

لكن الإمبرياليين قللوا بشكل كبير من تقدير عمق جذور الثورة، وبطولة الجماهير السوفياتية وعزيمتها.

البحث عن ذريعة

بدأت الحكومة الأمريكية في إعداد خطط عملياتية لسلسلة من الحملات العسكرية على الجمهورية السوفياتية. كان المبرر هو أن تلك الحملات تهدف إلى إبقاء الموانئ الاستراتيجية ومستودعات الأسلحة بعيدة عن متناول الألمان. لكن هدفها الحقيقي كان هو إبعاد تلك الموانئ والمستودعات عن أيدي البلاشفة.

وقد كانت للإمبريالية الأمريكية دوافع أخرى أيضا. فقد كانت قوة الإمبريالية اليابانية تتصاعد، وكان "الباب الغربي المفتوح" إلى الشرق مهددا. وفي الخامس من أبريل 1918، كانت أول فرقة من القوات اليابانية قد هبطت بالفعل في فلاديفوستوك. ولكن كيف يمكن تبرير التدخل العسكري الأمريكي في شرق سيبيريا، التي كانت تقع على بعد آلاف الأميال من الجيش الإمبراطوري الألماني؟ وجاء الجواب في هيئة الفيلق التشيكي.

خلال الحرب العالمية الأولى، تطوع 70 ألف جندي تشيكي وسلوفاكي للقتال إلى جانب الجيش القيصري الروسي ضد قوى

المركز في مقابل الاستقلال عن الإمبراطورية النمساوية المجرية. لكن مع سقوط القيصر وتولي البلاشفة السلطة، تقطعت بهم السبل في روسيا، وكانوا جيشا أجنبيا متمرسا وكبير الحجم في خضم الثورة. بدأوا في التحرك ببطء شرقا على خط السكك الحديدية عبر سيبيريا، على أمل إخلاء البلاد عبر فلاديفوستوك، ثم السفر عن طريق البحر للانضمام إلى الحلفاء في أوروبا الغربية.

لكن في ماي 1918، وبعد سلسلة من الاشتباكات البسيطة، دخل الفيلق التشيكي في تمرد مفتوح ضد النظام البلشفي، واحتل العديد من المدن المهمة على طول شريان النقل الرئيسي. ذلك جعلهم موضوعيا في معسكر الثورة المضادة، واستغلت الجيوش البيضاء الفوضى من أجل إنشاء سلسلة من الحكومات المناهضة للبلاشفة في جميع أنحاء سيبيريا.

كانت المواجهة بين الحكومة السوفياتية وبين الفيلق التشيكي هي العذر الذي كان الأمريكيون يبحثون عنه للتدخل لدعم "عناصر النظام المحترمة" في روسيا[6].

الدوبويز (Doughboys) والدببة القطبية

بدأ الغزو الأمريكي للأراضي السوفياتية في 15 غشت 1918، بإنزال 3000 جندي في فلاديفوستوك. وفي المجمل، كان ما يقرب من 9000 جندي أمريكي، والذين أطلق عليهم لقب "الدوبويز"، يخدمون على تلك الجبهة، بعد أن تم نقلهم في الغالب من جبهة الفلبين.

ثم في الرابع من شتنبر، نزل ما يقرب من 5000 جندي من قوات المشاة الأمريكية -المعروفين باسم "الدببة القطبية"- في شمال روسيا في أرخانجيلسك، وهو ميناء رئيسي على البحر الأبيض مع خط مباشر إلى بتروغراد.

كان أول ما أرادوا القيام به هو إنشاء قوة شرطة دولية تتألف من قوات من 12 بلدا تحت قيادة ضابط أمريكي من أصل روسي، الرائد صمويل إغناتيف جونسون. وكانت المهمة التالية هي ضمان استمرار تشغيل السكك الحديدية عبر سيبيريا حتى يتمكن التشيك من إعادة تجميع قواتهم.

وبطبيعة الحال، فإنه من الناحية الرسمية، لم تكن لأي من تلك التحركات أية علاقة بالتدخل في الحرب الأهلية المستعرة بالفعل بين الحمر والبيض. كما لم تكن له أية علاقة بموازنة قوة اليابانيين -الذين ردوا على إنزال القوات الأمريكية بتعزيز قواتهم إلى 72000- برسالة واضحة حول مطالبهم بالشرق الأقصى.

كما أرسل الحلفاء الإمبرياليون في بريطانيا وفرنسا وكندا وأستراليا عشرات الآلاف من القوات إلى سيبيريا. عدد قوات الجيش الحمر، من جانبها، كانت تبلغ حوالي 15000 جندي على هذه الجبهة، بمن في ذلك بعض أسرى الحرب الألمان والنمساويين الذين انشقوا للانضمام إلى القضية الشيوعية.

كانت الجيوش البيضاء تمثل قوى الرجعية في روسيا. وقد قاتلت، بتمويل ودعم من الإمبرياليين، من أجل الدفاع عن مصالح كبار ملاك الأراضي والكنيسة الأرثوذكسية والرأسماليين، وكانت على استعداد لإعادة الوضع الذي كان قبل البلاشفة مهما كانت الوسيلة.

لقد نظم أمير الحرب الفاشي، ألكسندر كولتشاك، جيوش الثورة المضادة في الشرق الأقصى، إلى جانب أنطون دينيكين في جنوب روسيا، ونيكولاي يودينيتش في الشمال الغربي. وتحت رعاية الحلفاء، أعلن كولتشاك نفسه "الحاكم الأعلى لروسيا" ورئيس الدولة الروسية، في مواجهة حكم البلاشفة. وقد كان نظامه وحشيا من المذابح والتعذيب والإعدامات والعمل القسري.

من ناحية أخرى، مثل الجيش الأحمر قوى الثورة: الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين الفقراء. وللدفاع عن الجمهورية السوفياتية الجديدة والاقتصاد المؤمم الذي استندت إليه، نجح ليون تروتسكي في بناء "جيش نموذجي جديد"، من الصفر تقريبا.

ورغم أنه اضطر إلى الاعتماد على ضباط الجيش القيصري السابقين، الذين كانوا يمتلكون المهارات والخبرات التقنية التي لا يمكن ارتجالها بين عشية وضحاها- فقد ضمن الولاء للقضية الثورية بتعيين مفوضين سياسيين للإشراف على كل الوحدات.

وفي غضون فترة قصيرة، تحول الجيش الأحمر إلى قوة منضبطة للغاية، مكونة من الناحية السياسية، وتتألف من ملايين الأشخاص، وحققت معجزات في ساحات المعارك، وقلبت في نهاية المطاف مجرى الأحداث ضد الرجعية والتدخل الإمبريالي.

مساعدة الجيش الأبيض

لا داعي للقول إن الأمريكيين كانوا يدخلون في موقف حساس. فرسميا، لم تكن الولايات المتحدة في حالة حرب ولا متحالفة مع أي من جانبي الصراع. لكن وجود الآلاف من الجنود على الأرض في خضم حرب أهلية كان يهدد بالتصعيد السياسي والعسكري. قال وزير الحرب الأمريكي نيوتن بيكر للجنرال الأمريكي المسؤول عن المغامرة السيبيرية، ويليام غريفز: "انتبه لخطواتك؛ فسوف تمشي على بيض محمل بالديناميت"[7].

كانت العمليات "الدفاعية" الأمريكية تركز ظاهريا على تمكين الفيلق التشيكي من الخروج من البلد. لكن في الممارسة العملية ساعد وجودهم وشجع، بطبيعة الحال، حكم الإرهاب الأبيض في المنطقة. إن اتفاقية السكك الحديدية التي وقعها الحلفاء فيما بينهم، في فبراير 1919، والتي فرضت السيطرة العسكرية على السكك الحديدية في سيبيريا، لم تكن أكثر من إضفاء الطابع الرسمي على الواقع الموجود على الأرض، والمتمثل في ضمان الحلفاء لخطوط الإمداد لصالح قوات كولتشاك. وقد كانت سيطرة البيض على السكك الحديدية تسمح لهم بمهاجمة أو تجويع كل من لا يخضع لدكتاتورية كولتشاك.

"كن على اهبة الاستعداد!" (1921)، ديمتري مور، يصور ليون تروتسكي، قائد الجيش الاحمر

تم إرسال حوالي 250 جنديا أمريكيا للدفاع عن مناجم سوشان، الواقعة على بعد 75 ميلا شمال شرق فلاديفوستوك. وكانت تلك المناجم توفر الكثير من الفحم المستخدم لتشغيل السكك الحديدية في شرق روسيا، وهو مورد أساسي للثورة المضادة. وكان أحد الإجراءات الأولى التي اتخذها الحلفاء هي إعادة تعيين مدير المنجم السابق، الذي كان العمال قد طردوه من المنطقة. وتمركز 2000 أمريكي آخرين على بعد 1700 ميل غرب فلاديفوستوك لحراسة نقط حيوية أخرى من السكك الحديدية. واتخذ آلاف آخرون مواقعهم في نقاط استراتيجية أخرى على طول خطوط السكك الحديدية.

كل هذا أدى حتما إلى حدوث سلسلة من الاشتباكات مع قوات الجيش الأحمر، والصفوف المتزايدة من قوات المغاوير المؤيدين للبلاشفة، وحتى القوزاق البيض المعارضين لوجود المتطفلين الأجانب.

تزايدت هجمات المغاوير الحمر على شحنات السكك الحديدية والمسارات والجسور طوال شهري مارس وأبريل. وبحلول شهر ماي، قرر غريفز أنه للحفاظ على النظام، سيتم منح القوات الأمريكية ترخيصا رسميا بملاحقة مجموعات المغاوير الذين كانوا يضايقون كولتشاك. تلا ذلك

صيف من المناوشات والهجمات ودوريات القتال في المناطق الريفية المحيطة، وذلك غالبا إلى جانب قوات الجيش الأبيض الروسية والقوات اليابانية.

في يونيو، شهدت معركة رومانوفكا هجوما مفاجئا شنه الحمر على معسكر للجيش الأميركي، مما أسفر عن مقتل 24 أميركيا وإصابة 25 آخرين. وبعد خمسة أيام، سافر السفير الأميركي في اليابان إلى عاصمة كولتشاك في أومسك. ورغم أنه لم يعترف به رسميا كزعيم رسمي لروسيا، فقد أبدى "اهتماما متعاطفا بتنظيم كولتشاك وأنشطته"[8].

ومع ذلك، فقد قدر السفير أن هناك حاجة إلى 40 ألف جندي أمريكي إضافي لضمان انتصار كولتشاك وإحباط التعدي الياباني على المنطقة. لكن ذلك كان مستحيلا.

كان العديد من الجنود الأمريكيين أكثر تعاطفا مع الجيش الأحمر من الجيش الأبيض، وأرعبتهم قسوة كولتشاك. وفي الأول من أكتوبر 1919، ألقي القبض على جنود أمريكيين وتم جلدهم على أيدي القوزاق التابعين لكولتشاك، يبدو أنه لم يكن أحد بمنأى من وحشيتهم.

وقد وقعت مشاهد مماثلة من القتال وانهيار المعنويات في نهاية المطاف حول أرخانجيلسك، حيث تمركزت قوات "الدببة القطبية" ووضعت تحت إدارة البريطانيين. علينا ألا ننسى أن أغلب تلك العمليات كانت قد جرت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رسميا في الحادي عشر من نوفمبر 1918. ورغم ذلك فقد استمر احتلال أجزاء من روسيا السوفياتية، وقد حدث كل هذا في ظل شعار "عدم التدخل" الذي تبناه ويلسون.

النداءات الأممية

لم يكتف الحمر بالرد العسكري، بل لجأوا أيضا إلى الرد السياسي، حيث ناشدوا القوات الغازية بخطاب أممي بروليتاري. فبعد أيام قليلة فقط من نزول القوات الأمريكية الأولى في فلاديفوستوك، نشرت صحيفة برافدا "**رسالة إلى العمال الأمريكيين**"، كتبها لينين نفسه. كما تم إرسال النداءات إلى عمال أوروبا.

كان لينين منظرا واستراتيجيا من المستوى الرفيع، إلا أنه كان كذلك تكتيكيا ماهرا بنفس القدر، وكان، بطبيعة الحال، أمميا حازما. كان ينظر إلى الثورة الروسية دائما باعتبارها مجرد عنصر واحد في الثورة العالمية، ولم تكن لديه أية أوهام حول قدرتها على البقاء في ظل العزلة. قال لينين:

«إننا نعول على حتمية الثورة العالمية. لكن هذا لا يعني أننا نعول على مجيئها في تاريخ محدد وقريب... نحن نعلم أن الثورات لا يمكن أن تأتي لا بناء على أمر ولا وفقا لخطط مدروسة مسبقا.

إننا نعلم أن الظروف وحدها هي التي دفعتنا، نحن البروليتاريا في روسيا، إلى الأمام، وأننا وصلنا إلى هذه المرحلة الجديدة في الحياة الاجتماعية في العالم ليس بسبب تفوقنا، بل بسبب الطبيعة الرجعية الفريدة لروسيا. لكن وإلى أن تندلع الثورة العالمية، فإن الثورات في البلدان الفردية قد تستمر في مواجهة عدد من النكسات والانقلابات الخطيرة»[9].

ونظرا للقوة الاقتصادية والعسكرية التي تمتلكها الولايات المتحدة ووزن طبقتها العاملة، فقد أدرك لينين أنها كانت تشكل مفتاحا حيويا لتلك السيرورة العالمية، وما يزال هذا هو الحال حتى اليوم. والواقع أن الأفكار التي شرحها في رسالته هي اليوم أكثر أهمية من أي وقت مضى.

تبنى لينين في تلك الرسالة لهجة صادقة وصريحة ومنفتحة، فقد كشف عن العديد من مشاكل الثورة ونواقصها، في حين أشار إلى إمكاناتها اللانهائية والنفاق الكلبي لأولئك الذين سعوا إلى إغراقها في الدماء، حيث قال:

«دعوا الصحافة البرجوازية الفاسدة تصرخ للعالم أجمع بخصوص كل خطأ ترتكبه ثورتنا. نحن لا نخاف من أخطائنا. لم يصر الشعب قديسا لمجرد أن الثورة بدأت. لا يمكن للطبقات الكادحة التي تعرضت لقرون من القمع والسحق والإجبار على الفقر والوحشية والجهل أن تتجنب الأخطاء عند القيام بالثورة.

[...]

إن كل خطأ يُرتكب في سياق مثل هذا العمل، في سياق هذا العمل الأكثر وعيا وجدية لعشرات الملايين من العمال والفلاحين البسطاء في سبيل إعادة تنظيم حياتهم بالكامل، كل خطأ من هذا القبيل يساوي أكثر من آلاف وملايين النجاحات "غير الشرعية" التي حققتها الأقلية المستغِلة، نجاحات في الاحتيال وخداع العمال. لأنه من خلال هذه الأخطاء فقط سيتعلم العمال والفلاحون كيفية بناء حياة جديدة، وسيتعلمون الاستغناء عن الرأسماليين؛ وبهذه الطريقة فقط سيتمكنون من شق طريقهم -عبر آلاف العقبات- إلى الاشتراكية المنتصرة»[10].

كما أظهر لينين أيضا معرفته الغنية بـ"التقاليد الثورية في حياة الشعب الأمريكي"، من خلال الإشارة إلى الثورة الأمريكية، والحرب الأهلية الأمريكية، ويوجين ديبس. ومن خلال تسليطه الضوء على الانقسامات الطبقية في المجتمع الأمريكي، سعى إلى دق إسفين بين العمال الأمريكيين وبين مستغِليهم. لقد وضع "الأثرياء (Plutocrats) الأمريكيين" في مواجهة "البروليتاريا الثورية في أمريكا"، ودعا هذه الأخيرة إلى أداء المهمة الحيوية المتمثلة في إنهاء التدخل العسكري. إن العدو الحقيقي هو، بعد كل شيء، موجود في الداخل. كما أوضح:

«لقد حقق [الإمبرياليون الأمريكيون] أكبر الأرباح. لقد جعلوا كل البلدان، حتى أضعفها، مدينين لهم. لقد

راكموا ثروات هائلة أثناء الحرب. وكل دولار ملطخ بالدماء التي أريقت من قبل ملايين الرجال القتلى والمعطوبين، في حرب الحرية السامية والمشرفة والمقدسة»[11].

شرح لينين بعبارات بسيطة لكنها عميقة الجذور الطبقية للحرب العالمية الأولى والتدخل الأجنبي ضد الاتحاد السوفياتي، موضحا بشكل جلي أن الألمان والحلفاء جميعهم كانوا مسؤولين عن المذبحة المروعة. لم يكن البلاشفة عملاء للقيصر الألماني بل على العكس كانوا أعداء لدودين للإمبريالية الألمانية، كما يتضح من شروط بريست ليتوفسك.

لقد أدان لينين جميع الإمبرياليين بأشد العبارات قوة:

«لا يمكن وضع جثة المجتمع البرجوازي الميتة في نعش ودفنها ببساطة. إنها تتعفن بيننا، وتسمم الهواء الذي نتنفسه، وتلوث حياتنا، وتتشبث بالجديد والنقي والحي بألف خيط من العادات القديمة والموت والتحلل»[12].

انحدار الروح المعنوية

كان العديد من هؤلاء العمال والمزارعين الأمريكيين بالزي العسكري، الذين كانوا محاصرين وغير مرحب بهم، قد بدأوا يشعرون بشكوك متزايدة حول دورهم في روسيا، وكانوا يشعرون بالضيق والانزعاج تحت قيادة البريطانيين في أرخانجيلسك. ولقد لخص ضابط أمريكي المزاج المتوتر بين القوات قائلا:

«لقد صرحوا بأنه تم تجنيدهم لمحاربة ألمانيا، وليس البلاشفة. وأنهم أُرسلوا إلى هنا لحراسة الإمدادات وليس لشن حرب عدوانية؛ وأنه بعد توقيع الهدنة مع ألمانيا انتهت مهمتهم، فإذا كانت الحكومة تريد منهم البقاء ومحاربة البلاشفة، فعليها أن تقول ذلك وتعلن عن سياسة محددة فيما يتعلق بروسيا»[13].

وقال جنرال أمريكي آخر، هو "بلاك جاك" بيرشينغ:

«كانت الروح المعنوية لقواتنا منخفضة منذ توقيع الهدنة مع ألمانيا. ويبدو أن الرجال وبعض الضباط غير قادرين على فهم سبب بقائهم في روسيا بعد توقف القتال مع ألمانيا»[14].

كان معظم قوات "الدببة القطبية" المتمركزة في شمال روسيا ينحدرون من منطقة الغرب الأوسط العليا نظرا لتعودهم على الطقس البارد. وبمجرد أن أصبحت الهدنة رسمية، زادت الصحف في شيكاغو وديترويت وويسكونسن من الضغوط لإعادة القوات إلى الوطن. بل لقد عملت بعض الصحف حتى على نشر رسائل الجنود التي تصف بالكامل الظروف القاسية التي واجهوها، وذلك في تحد للرقابة الحكومية. وقد صور رسم كاريكاتوري نُشر في صحيفة شيكاغو تريبيون، 12 أبريل 1919، جنديين أميركيين في أرخانجيلسك يسألان بعضهما البعض: "قل لي، متى أعلنا الحرب على روسيا؟".

تعرضت القوات الأمريكية لسيل متواصل من النداءات الأممية البروليتارية من طرف السوفييت الذين أضافوا أن المحتلين يواجهون الدمار المؤكد إذا هم ظلوا على الأراضي الروسية. كما تم استخدام وجود الإمبرياليين من أجل كسب الفلاحين الروس إلى جانب الثورة.

وصورت إحدى المنشورات العم سام والرأسماليين البريطانيين وهم يمسكون بزمام القادة البيض. وأشار الصليب الأحمر الأمريكي إلى أن "وجود الحلفاء في شمال روسيا يشكل أحد أقوى ركائز الحكومة البلشفية»[15].

وقد تزايدت الضغوط السياسية من أجل إنهاء الحملة، حيث قاد الأعضاء الجمهوريون في الكونغرس ومجلس الشيوخ تلك الحملة. كان التصويت على مشروع القانون متعادلا حتى داخل الحزبين، حيث كسر نائب الرئيس، الديمقراطي، التعادل لصالح إطالة أمد المغامرة.

وبعد هذا التصويت الفاشل، هبطت الروح المعنوية بين الجنود بشكل أكبر. في 30 مارس 1919، وصلت الأمور إلى نقطة تحول عندما أمر رقيب في شمال روسيا أربعة جنود بتحميل زلاجاتهم والانتقال إلى الجبهة. رفض هؤلاء الجنود تنفيذ الأمر، وتمت الدعوة إلى اجتماع عام. حيث، وفقا لتصريح ملازم يدعى ماي، اشتكى الجنود من أنه:

«لم يتم تزويدهم أبدا بإجابة عن سبب وجودهم هناك، لكن الحمر كانوا يحاولون دفعهم إلى البحر الأبيض وأنهم كانوا يقاتلون من أجل حياتهم»[16].

مزاج متمرد

رغم أنه توجد روايات متضاربة حول ما حدث بعد ذلك، فقد نشرت صحيفة واشنطن بوست مقالا، في 11 أبريل، بعنوان: "تمرد القوات الأمريكية على جبهة أركانجل". أفاد المقال أنه بعد رفض أربعة جنود الذهاب إلى الجبهة، تمرد 250 جنديا آخرين، وتوقع حدوث "تمرد عام" إذا لم يتم سحب القوات على الفور. وفي نهاية المطاف، وصلت تلك التقارير إلى "الدببة القطبية" في روسيا، مما أدى إلى انخفاض معنوياتهم بشكل أكثر فأكثر.

ولقد توصل بعض الجنود الأمريكيين على الأقل إلى استنتاج مفاده أن البريطانيين، الذين كانوا يسيطرون على العملية بشكل عام، كانوا يحلمون بالغزو المباشر. وكما كتب أحدهم في مذكراته فإنه:

«لم تكن هناك إمدادات. بل إن البريطانيين كانوا يريدون احتلال وغزو دولة شمال روسيا من أجل الحصول على أشجار الصنوبر من الغابات»[17].

وتزايدت المخاوف من أن القوات الأمريكية قد لا تطيع أوامر الضباط البريطانيين. وكما كتب أحد القادة الأمريكيين فقد:

«أعرب العديد من ضباطنا عن شكوكهم الجادة في أن يستمر الجنود

في إطاعة الأوامر الخاصة بالعمليات الهجومية»[18].

وكان مزاج الفلاحين الروس في المناطق المحتلة يميل بوضوح لصالح الحمر. فقد منحت ثورة أكتوبر الأرض للفلاحين، لكن أينما تولى البيض السيطرة، أعادوا بلا رحمة السيطرة لملاك الأراضي السابقين، بدعم من نظام الإرهاب. فكان من السهل على الفلاحين أن يحددوا الجانب الذي يدافع عن مصالحهم.

وفي الوقت نفسه، كانت الجهود الجبارة التي بذلها تروتسكي لبناء جيش أحمر تحقق نتائج مذهلة. حتى الاستخبارات العسكرية الأمريكية اضطرت إلى الاعتراف بذلك:

«خلال الشهرين الماضيين، أعيد تنظيم القوات البلشفية بالكامل، وتجري محاولة جادة لإنشاء جيش كبير ومنضبط على غرار النموذج الأوروبي»[19].

ومع اكتساب البلاشفة للزخم، تزايدت المخاوف من أن يتعرض المحتلون للاجتياح. وكانت مواقع الحلفاء تتعرض بانتظام للقصف بالمدفعية بعيدة المدى، وأفادت أجهزة الاستخبارات بأن «العدو يجمع قواته بشكل منهجي على جميع الجبهات بهدف شن هجوم عام قبل ذوبان الجليد»[20].

وكتب أحد القادة الأمريكيين، الجنرال ستيوارت، إلى وزير الحرب على وجه السرعة قائلا:

«العدو أصبح أكثر عددا على جميع الجبهات وأكثر نشاطا. وقيادة قوات الحلفاء صغيرة، وليست لدينا احتياطيات»[21].

وقعت المعركة النهائية في شمال روسيا، بالقرب من قرية بولشي أوزيركي، في الثاني من أبريل 1919. وبحلول ذلك الوقت، كانت القوات الأمريكية قد استُنزِفت أعدادها وأسلحتها وإمداداتها ومعنوياتها. في يونيو من ذلك العام، وبمجرد إعادة فتح الملاحة في البحر الأبيض، بدأت القوات الأمريكية في الانسحاب، وأُرسِل جنود بريطانيون ليحلوا محلهم. وبعد فترة وجيزة، اجتاح البلاشفة تلك المواقع واستعادوا مورمانسك وأرخانجيلسك.

في الأول من أبريل 1920، انسحبت آخر القوات الأمريكية من سيبيريا. وبلغ إجمالي عدد القتلى الأمريكيين في القتال أو بسبب المرض أو قضمات الصقيع في شمال روسيا وسيبيريا 424 قتيلا.

الأممية في الممارسة

لم يتوقف قتال البلاشفة ضد الإمبريالية الأمريكية عند حدود روسيا. فقد تم تهريب رسالة لينين إلى الولايات المتحدة ونشرها في شكل مختصر قليلا، في دجنبر 1918، في كل من مجلة نيويورك "*The Class Struggle*" وأسبوعية بوسطن "*The Revolutionary Age*". وكان جون ريد، مؤلف كتاب "عشرة أيام هزت العالم"، من بين الشخصيات التي ساهمت في نشر تلك الرسالة في الولايات المتحدة.

ومن هناك، شقت الرسالة طريقها إلى الصحافة البرجوازية في الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وألمانيا. وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص، أصبحت تلك الوثيقة بمثابة نقطة محورية لليسار الثوري، حيث عملت كوثيقة تأسيسية بحكم الأمر الواقع للحركة الشيوعية الجنينية وساعدت في إثارة حركة المعارضة للتدخل المسلح الذي قاده ويلسون ضد الثورة.

نرى هنا على أرض الواقع ثمار الأممية البروليتارية التي تبناها لينين. ففي مواجهة التهديد بالدمار من كل جانب، قام بمناشدة عمال العالم على أساس طبقي، دون أدنى تلميح إلى الشوفينية القومية، واستخدم نداءاته للمساعدة في بناء أحزاب ثورية داخل بلدان الإمبرياليين أنفسهم.

إن مصير المغامرة المشؤومة التي خاضتها الإمبريالية الأمريكية داخل الجمهورية السوفياتية الفتية يقدم العديد من الدروس للشيوعيين اليوم.

لم يتوقف نفاق الإمبريالية الأمريكية عن التصاعد منذ عام 1918. واليوم، بينما تمول الولايات المتحدة وحلفاؤها في حلف شمال الأطلسي الحروب والفظائع في كل من أوكرانيا والشرق الأوسط -وكل ذلك باسم "الديمقراطية" و"تقرير المصير" - من الأهمية بمكان أكثر من أي وقت مضى أن يفضح الشيوعيون أكاذيب الإمبرياليين ومصالحهم الحقيقية، بنفس الطريقة الجريئة والمبدئية التي اتبعها لينين.

وفي سياق التوترات المتصاعدة بين الإمبريالية الغربية وبين روسيا والصين، مع كل ما يترتب عن ذلك من اضطرابات و"حروب بالوكالة"، تصير الحاجة إلى موقف طبقي وأممي واضح أمرا ضروري للغاية. وبدلا من الانحياز إلى هذه القوة أو تلك من القوى المتصارعة، يتعين على الشيوعيين أن يدعوا العمال في كل مكان إلى النضال ضد الإمبرياليين من بلدانهم وتوحيد قواهم من أجل انتصار الثورة الاشتراكية العالمية.

بعد أكثر من 100 عام منذ غزو الولايات المتحدة لروسيا، لم تكن إمكانية الثورة العالمية في أي وقت مضى أعظم مما هي عليه اليوم، ولدينا كل الحق في مشاركة لينين ثقته التي لا تنضب في الطبقة العاملة العالمية، إذ يقول:

«دعوا "الاشتراكيين" المتذمرين يصرخون، ودعوا البرجوازية ترغي وتزبد، لكن وحدهم الأشخاص الذين يغلقون أعينهم حتى لا يروا، ويسدون آذانهم حتى لا يسمعوا، هم من يمكنهم أن يفشلوا في ملاحظة أن آلام مخاض المجتمع الرأسمالي القديم، الحامل بالاشتراكية، قد بدأت في جميع أنحاء العالم»[22].

المراجع على موقعنا
marxist.com/idom-47-references
أو قم بمسح رمز QR

"اهزموا البيض بالإسفين الأحمر" جوهر الثورة العالمية

ربما كان ملصق الحرب الأهلية الشهير، "اهزموا البيض بالإسفين الأحمر"، الذي صممه الفنان إيل ليسيتزكي، هو العمل الفني الأكثر شهرة الذي نشأ من الثورة الروسية بأكملها. إنه ملصق ما يزال تأثيره واسع النطاق حتى يومنا هذا. في هذه المقالة، يستكشف الرفيقان **نيلسون وان وجيمس كيلبي**، كيف ظهر الإسفين الأحمر، وكيف يجسد جوهر الثورة، وكيف يمكن اعتبار عمل دعائي مثل هذا عملا فنيا عظيما.

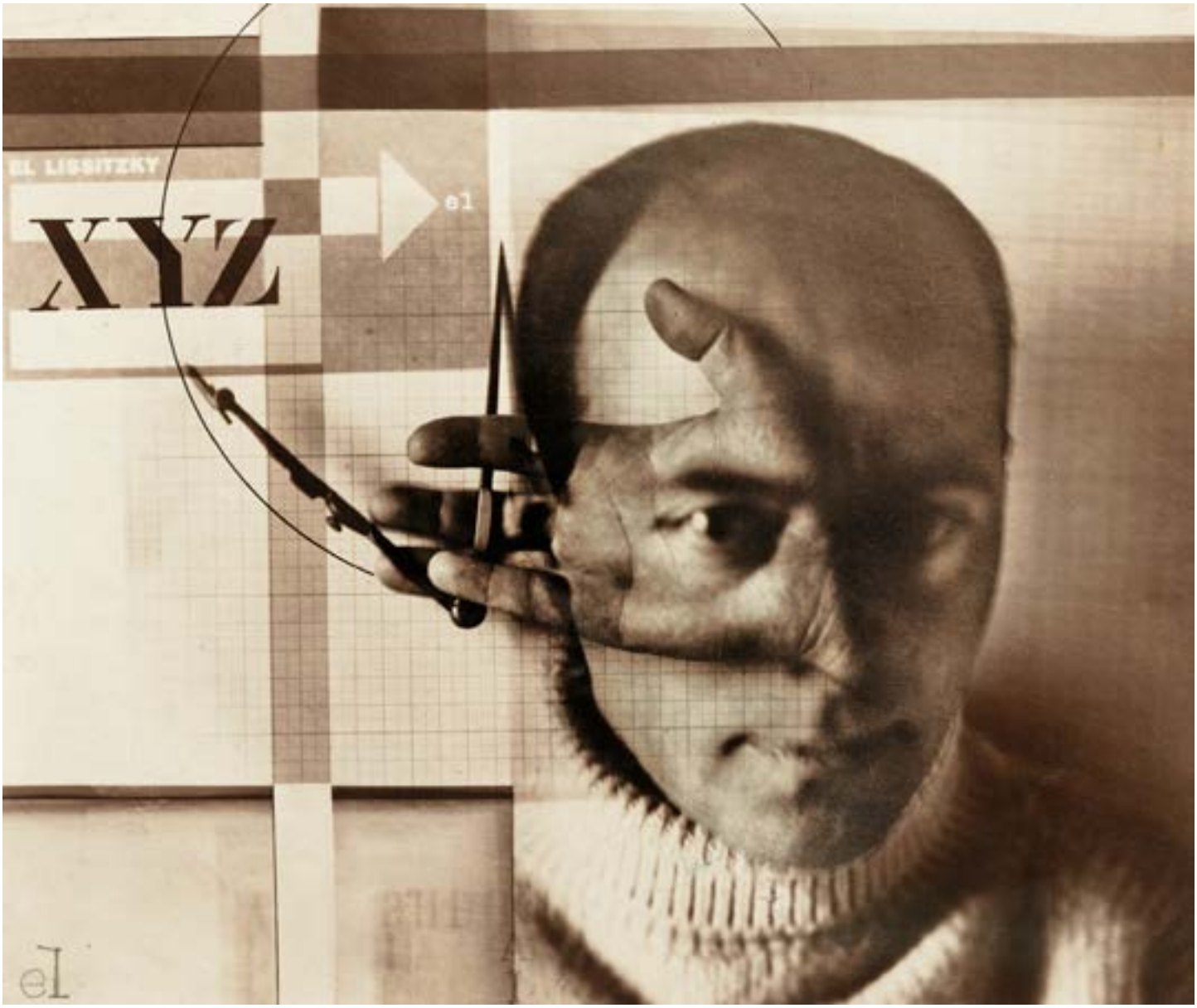

البنّاء (1924)، إل ليسيتزكي، بورتريه ذاتي

«في موسكو عام 1918، لمع أمام عينيَّ الانفجار الذي قسم العالم إلى نصفين. إن هذه الضربة الفريدة دقت اللحظة، التي نسميها الحاضر، مثل إسفين بين الأمس والغد. **وجهودي الآن موجهة لدق الإسفين بشكل أعمق. يجب أن ينتمي المرء إلى هذا الجانب أو ذاك، لا يوجد طريق وسط**»[1].

أدت الثورة الروسية، عام 1917، إلى انطلاق موجة من العبقرية الفنية والإبداعية التي حركت أعماق المجتمع. وانفتحت أبواب الفن والثقافة أمام جماهير المضطهَدين في روسيا، للمرة الأولى في حياتهم. كما انضم، في الوقت نفسه، أفضل وألمع الفنانين والمثقفين الروس إلى الثورة.

وقد كان من بين أعظم هؤلاء الفنانين: الفنان الموهوب إليزار ماركوفيتش ليسيتزكي، المعروف باسم "إل ليسيتزكي". كان إل ليسيتزكي مصورا ومصمما وخطاطا ومهندسا معماريا، إضافة إلى أشياء أخرى عديدة. وقد أحدث ثورة في كل مجال فني عمل فيه تقريبا، وبعد ثورة أكتوبر، أصبح شيوعيا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

ورغم أن مساهماته في مختلف المجالات كانت محورية، فإن العمل الذي اشتهر به ربما يكون ملصق الحرب الأهلية "**اهزموا البيض بالإسفين الأحمر**"، والذي أنتجه من أجل مساعدة النضال البلشفي ضد جيوش الرجعية البيضاء.

نضال عسير

يعد ملصق "**اهزموا البيض بالإسفين الأحمر**" تصويرا رائعا للسيرورة الثورية في واحدة من أكثر مراحلها صعوبة: مرحلة الحرب الأهلية.

وفي سياق ذلك النضال كان المجتمع قد صار مستقطَبا إلى أقصى درجة. ولم يعد هناك مفر من السؤال: إلى أي جانب تنتمي أنت؟

كان هذا هو الوضع الذي وجدت فيه الثورة الروسية نفسها في أواخر عام 1919، عندما أنتج إل ليسيتزكي على الأرجح الإسفين الأحمر. ورغم أن ثورة أكتوبر عام 1917 كانت حدثا غير دموي إلى حد كبير،

فإن تدخل الإمبرياليين العالميين، بحلول مارس 1918، لتمويل وتسليح وتدعيم القوات المعادية للثورة، فتح حمام الدم خلال الحرب الأهلية.

وفي سياق ذلك الصراع، انقسم المجتمع -بل والعالم أيضا- إلى معسكرين متعارضين: الحمر والبيض. وعلى الرغم من الإشارة إليها على أنها "حربا أهلية"، فإنها كانت في الواقع حربا دولية، امتدت على عدد كبير من الأراضي، وشاركت فيها أمم أخرى كثيرة.

وعند نقطة معينة، انقسمت جميع الأحزاب البرجوازية الصغيرة في الإمبراطورية الروسية السابقة، أو اصطفت خلف البيض. انقسم الفلاحون بين الفئات الفقيرة والمتوسطة من جهة، والتي استفادت من سياسة الأرض التي طبقها البلاشفة، وكانت مستعدة للدفاع عنها، وبين الفلاحين الأثرياء، أو "الكولاك"، الذين كان معظمهم معادين للثورة.

إن لوحة "**اهزموا البيض بالإسفين الأحمر**" تصور هذه السيرورة بشكل واضح للغاية، باعتبارها صراعا بين معسكرين عالميين: معسكر النور ومعسكر الظلام. لا يوجد معسكر وسط.

نرى هنا صراعا بين الثورة، الممثلة على اليسار بلون ساطع، وهي تتغلب على الثورة المضادة، المصورة على اليمين بألوان قاتمة. والإسفين الأحمر نفسه يمثل بوضوح رأس حربة الثورة -الجيش الأحمر، تحت قيادة البلاشفة- الذي سحق جيوش الرجعية البيضاء.

وكما هو الحال مع العديد من الفنانين الثوريين العظماء، فقد كانت هناك جهود من جانب البرجوازية لفصل فن إل ليسيتزكي عن قناعاته الثورية، لكن هذا مستحيل. الفنان، كما قال تروتسكي، ليس "آلة فارغة"[2]. إنه شخص حي له نفسية يشكلها المجتمع من حوله.

إن صورة **الإسفين الأحمر** تخبرنا أن إل ليسيتزكي لم يكن مجرد "رفيق سفر" ينظر إلى الثورة باعتبارها سيرورة عمياء من الخارج، بل كان في الواقع يقدر الديناميات الداخلية للسيرورة الثورية، وكل ما تمثله الثورة.

من الواضح تماما أن إل ليسيتزكي قد فهم الثورة الروسية **من الداخل**، باعتباره شيوعيا. تكون الثورات، بالنسبة للنظرة السطحية، مجرد أحداث فوضوية ولا شكل لها. وبالنسبة للبرجوازي الصغير، لا يوجد سبب أو مبرر علمي وراء الثورة. لكن إل ليسيتزكي لا يصور الفوضى. صورة **الإسفين الأحمر** تعبر عن الوضوح ووحدة الهدف والعمل والاتساق والصراع الطبقي نفسه؛ كل ذلك بدقة رياضية. وصف تروتسكي الماركسية بأنها "علم الثورة"[3]، وهو وصف مناسب لما تصوره لوحة الإسفين الأحمر.

دق الإسفين

باعتبارها عملا فنيا، تعتبر لوحة **الإسفين الأحمر** تجريدية للغاية، ومع ذلك توفر الأشكال التبسيطية وضوحا أعمق في المعنى. وباستثناء بعض المثلثات والمستطيلات الأصغر حجما، فإن التركيبة مكونة بالكامل من أشكال ثنائية الأبعاد، ومع ذلك هناك ديناميكية وحركة معبر عنهما.

إن شكل الإسفين الأحمر حاد وقوي. وهو بكل قوته المركزة في نقطة واحدة، يخترق الدائرة البيضاء الخاملة. بينما تعبر الإسفينات الحمراء الأصغر عن الحركة التي تندفع إلى الصورة وتحطم المستطيلات الرمادية الأصغر. ويتماشى النص مع هذه الحركة. وبينما يتم تصوير الوحدات الأصغر من الجيش الأحمر في الخلف على شكل سلسلة من المستطيلات المنظمة؛ يتم تصوير القوات الإضافية للجيوش البيضاء في حالة من الفوضى بينما هي تواجه الحمر.

وباستخدام الأشكال والألوان المجردة لتصوير قوى الثورة والثورة المضادة، لا يوجد أي تلميح إلى أي قومية في هذا الصراع. هناك ببساطة صراع بين الطبقتين الحاسمتين في المجتمع الحديث: الطبقة العاملة العالمية، من جهة، والرأسماليين في جميع البلدان، من جهة أخرى.

ومن المرجح أن تكون لوحة الإسفين الأحمر قد جاءت بتأثير من **النصب التذكاري للجيش الأحمر**، الذي بناه نيكولاي كولي، في موسكو عام 1918، للاحتفال بهزيمة محاولة الانقلاب العسكري التي قادها الجنرال كراسنوف، في نوفمبر 1917.

كان النصب التذكاري الذي بناه كولي، والذي أسماه "الإسفين الأحمر" يتألف من مثلث أحمر تم إدخاله عموديا على شكل إسفين في كتلة مستطيلة بيضاء. وهناك شق واضح للغاية يمتد إلى أسفل من طرف المثلث، مما يشير إلى أن قوة الإسفين الأحمر قد نجحت في كسر صلابة البنية البيضاء.

كان المقصود من الاستعارة التجريدية لهذا الإسفين الأحمر أن تدل على انتصار الجيش الأحمر على قوى الثورة المضادة البيضاء. وقد نجح النصب التذكاري في نقل قصة كانت لتكون مفهومة لجميع مستويات المجتمع الروسي، كما كان الحال بلا شك مع تحويل إيل ليسيتزكي لنصب كولي التذكاري إلى "الإسفين الأحمر".

الإسفين الأحمر في حد ذاته هو في الواقع إشارة مناسبة لطليعة الثورة. فهو من جهة يمثل القوات العسكرية للحمر: والتي هي قوى حادة بما يكفي لاختراق دفاعات البيض وسحقهم. إلا أنه، من جهة أخرى، يمثل **البرنامج الأحمر للثورة**: مصادرة أملاك الرأسماليين والملاكين العقاريين، وسلطة العمال، والأراضي للفلاحين.

لقد استخدم البلاشفة برنامجهم بمهارة لدق إسفين في صفوف جيوش الثورة المضادة، وتقسيم قواتهم، بين القيادات العسكرية -والرأسماليين وملاك الأراضي الذين تخدمهم- وبين الجنود العاديين، الذين تم كسب العديد منهم **سياسيا** إلى معسكر الثورة.

والواقع أن الجيوش الغازية التي أرسلها الإمبرياليون للمساعدة في سحق الثورة، كان لابد من سحبها جميعها تقريبا في أعقاب التمردات، أو خطر التمردات، داخل صفوفها.

ومن ثم فإن الإسفين الأحمر فعال في هزيمة الجيوش البيضاء **من الداخل**، وهو الأمر الذي يعبر عنه ملصق إل ليسيتزكي ببراعة.

تأثير ثورة أكتوبر

إن لوحة "الإسفين الأحمر" جديرة بالملاحظة أيضا لأنها تكشف عن التأثير العميق الذي خلفته الثورة الروسية على شريحة من الفنانين وفنهم.

لقد أطلق دخول الجماهير إلى مسرح التاريخ العنان لرغبة هائلة كانت مكبوتة في غزو عالم الثقافة من جانبهم. وقد أنتج النضال من أجل تحويل المجتمع شعورا بالسمو الروحي، الذي وجد انعكاسه بالطبع في فن ذلك اليوم.

لقد اجتذبت الثورة شريحة واسعة من الفنانين، الذين ارتبطوا بالروح الجديدة للعصر. وتم التخلص من التقاليد والروتين القديمين لصالح أفكار وتقنيات جديدة.

إن لوحة "الإسفين الأحمر" هي بوضوح نتاج لمدرسة الفن "التفوقية" (Supre-matist)، التي أسسها صديق ومعلم إل ليسيتزكي: كازيمير ماليفيتش، عام 1915. لقد أنتج ماليفيتش بعضا من أولى اللوحات التجريدية في العالم. لقد رفض تقليد الأشكال الطبيعية، وطالب بإنشاء تركيبات هندسية مجردة، بألوان محدودة، من أجل إظهار "سيادة الشعور الفني الخالص"[4].

أشار ماليفيتش بشكل صحيح إلى أن الفن الذي يكتفي بإعادة إنتاج تشابه دقيق للأشياء المادية لا يشكل في حد ذاته

الإسفين الأحمر (1918)، نيكولاي كولي.
النص الموجود على القطعة هو:
"عصابات الحرس الأبيض".

فنا عظيما. وأن **المشاعر** التي يولدها العمل الفني لدى الناس هي الأكثر أهمية.

ورغم أن هذه الفكرة تحتوي بالتأكيد على حقيقة عميقة، فإن ماليفيتش، باعتباره مثاليا فلسفيا، بالغ في تقدير عالم المشاعر والعواطف "غير الموضوعية" باعتباره سابقا على العالم المادي. وبالتالي فإن فلسفته "التفوقية" كانت محاطة بغطاء من التصوف.

كانت إحدى أشهر أعمال ماليفيتش، حيث أخذ التجريد إلى أقصى أشكاله، هي لوحته التي رسم فيها مربعا أسودا (لتصوير "الشعور الخالص") على خلفية بيضاء، والتي أنجزها في عام 1915. ومن هذا انتقل إلى ترتيبات أكثر تعقيدا للأشكال الهندسية، مثل لوحة "**التكوين الفائق (المستطيل الأسود فوق الشعاع الأحمر)**"، التي رسمها في عام 1916.

لقد فتحت لوحة **المربع الأسود** لماليفيتش -وغيرها من الأعمال الأخرى- الباب أمام ثورة حقيقية في الفن، والتي استندت إلى التجريد كوسيلة لاستحضار المشاعر. وقد نشأت من ذلك الاتجاه بعض أفضل فنون تلك الفترة.

بعد عام 1917، تبنى ماليفيتش الثورة بشكل كامل، وأصبح عضوا في كلية فنون ناركومبروس (مفوضية الشعب للتعليم). وعلى الرغم من عدائه الفلسفي للماركسية، فقد تم تشجيعه على تولي أدوار التدريس في عدد من مدارس الفنون المرموقة، وأتيحت له فرص واسعة لعرض أعماله. وهذا دليل على ثقافة حرية التعبير الفني التي ميزت السنوات الأولى من حكم البلاشفة، قبل أن يختنق ذلك بسبب صعود البيروقراطية الستالينية.

في أكتوبر 1919، تمكن إل ليسيتزكي من إقناع ماليفيتش بالانضمام إليه للتدريس في مدرسة الفنون الشعبية في فيتيبسك، ببيلاروسيا. وبالإضافة إلى تدريس التصميم الغرافيكي والطباعة والهندسة المعمارية، أمضى إل ليسيتزكي الصيف، في فيتيبسك، في تصميم وإصدار ملصقات دعائية.

كانت فيتيبسك، هي المكان الذي كسب فيه ماليفيتش إل ليسيتزكي إلى أسلوبه التفوقي. أنتج إل ليسيتزكي "اهزموا البيض بالإسفين الأحمر"، بعد فترة وجيزة على لقائهما هناك (إما أواخر عام 1919 أو أوائل عام 1920).

آخر معرض لوحات مستقبلية 0,10: قسم من أعمال الفنان كازيمير ماليفيتش التي عُرضت لأول مرة في عام 1915 في بتروغراد. تظهر لوحة المربع الأسود في المنتصف بين الجدارين. توجد لوحة "التكوين الفائق" (المستطيل الأزرق فوق الشعاع الأحمر) مباشرة أسفل لوحة المربع الأسود على اليسار.

لكن وعلى الرغم من مساهماته الهائلة في فن تلك الفترة، فقد وصف إل ليسيتزكي ماليفيتش بأنه "محاصر في عالم خال من الأشياء الحقيقية"[5]. لذلك طرحت على كاهل إل ليسيتزكي مهمة القيام بتطبيق أكثر عملية لأفكار ماليفيتش التفوقية في الاسفين الأحمر وأعمال أخرى.

كان الاسفين الأحمر ملصقا تم إنتاجه بكميات كبيرة، على عكس اللوحات أو المنحوتات. انتقل إلى عالم الطباعة والتصميم الغرافيكي والملصقات. وعلى عكس محاولات ماليفيتش ليرسم "الشعور الخالص" (وهو شيء لا يمكن أن يوجد)، فقد سعى إل ليسيتزكي، بشكل واع، إلى الاستفادة من **شعور محدد للغاية** والمساعدة في تطويره: أي شعور التفاؤل الثوري والتصميم عند الطبقة العاملة والفقراء في نضالهم لتغيير العالم.

أجيت بروب (Agit-prop)

لم يكن من قبيل المصادفة أن قرر إل ليسيتزكي إنتاج الاسفين الأحمر كملصق، وليس رسمه على قماش أو منحوتة تقليدية. ووفقا لإل ليسيتزكي، فقد خضع التصميم الطباعي لتغيير جذري في أعقاب الثورة الروسية. كتب قائلا:

«لقد أصبحت الجماهير الغفيرة، والجماهير شبه الأمية، هي الجمهور... تم تمزيق الكتاب التقليدي إلى صفحات منفصلة، وتكبيره مائة ضعف، وتلوينه، وإحضاره إلى الشارع كملصق»[6].

كان هناك انتشار هائل لفن الشوارع خلال السنوات التي أعقبت ثورة أكتوبر، حيث لعبت الملصقات دورا كبيرا. ووفقا لميخائيل جيرمان فإن:

«الملصق حفز الفكر، وعبر عن السخط، وتفجر بالحماس، وأثار الضحك، واستجاب بشكل فوري للأحداث، ونقل الأخبار دون تأخير. كانت الملصقات تُرسم ليلا، لتُلصق في الشوارع في الصباح. وعلى الرغم من أن الأوراق كانت مصممة مع معرفة أن حياتها ليست سوى يوم واحد، فإنها استمرت في تاريخ الفن على مر السنين. لقد استمرت ليس فقط لكونها شاهدة على الأحداث العظيمة، بل وأيضا بسبب إتقانها الكبير والصارم»[7].

كانت هذه هي روح فن "agit-prop" الذي أنتجه إل ليسيتزكي وغيره من الفنانين الطليعيين في تلك الفترة.

خلال السنوات التي أعقبت إبداعه لعمله "الإسفين الأحمر"، قام إل ليسيتزكي وماليفيتش معا بتأسيس منظمة "يونوفيس" (UNOVIS) (ممثلو الفن الجديد)؛ وهي مجموعة من الفنانين التفوقيين. وبدلا من إنتاج أعمال فنية لعرضها في المعارض أو المنازل الخاصة، قاما بتزيين جدران وقاعات المباني العامة بتصاميم وملصقات ولافتات تفوقية. وكان هدفهما هو نشر التفوقية كلغة بصرية للثورة العالمية.

هل يمكن للدعاية أن تكون فنا عظيما ؟

اللافت للنظر أيضا في ملصق "الإسفين الأحمر"، هو أنه تم إنتاجه كملصق دعائي، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة لا تقلل من جودته الفنية.

إن أعظم الفنون هي تلك التي تتعامل مع الأسئلة الكبرى، أسئلة الحياة والموت، والتي تحرك حياة الملايين. إنه الفن الذي لديه ما يقوله عن العالم الذي نعيش فيه، والذي يحرك المشاعر، ويستنهض الناس إلى الفعل.

وبالتالي فإن الكثير من أعظم الفنون هي فنون سياسية، لأنها تتعامل مع ظروف الحياة، والنضالات، وتطلعات المضطهدين. ولكن السياسة وحدها لا تجعل الفن عظيما. فبينما من المؤكد أن الفنانين قادرون على نقل رسالة سياسية من خلال فنهم، فإن الرسالة لابد وأن تنبثق من الفن بشكل عضوي، وليس كشيء قسري متعسف.

وبشكل عام، فإنه نادرا ما ترقى أعمال الدعاية إلى مستوى الفن العظيم، هذا إذا ما اعتبرت "فنا" أصلا. وذلك لأن الدعاية تهتم في المقام الأول بنقل رسالة خارجية تماما عن الشكل الفني المستخدم. والعنصر الفني يأتي في المرتبة الثانية؛ فهو مجرد وسيلة لإيصال رسالة سياسية.

لكن وفي حين أن ملصق "الإسفين الأحمر" لإل ليسيتزكي هو بلا شك عمل دعائي، فإن نواياه الفنية والسياسية تتوافق بشكل متناغم. إن الدعاية الموجودة في العمل ليست ديماغوجية سطحية؛ بل هي جوهر الثورة الروسية وكل ما سعت إلى تحقيقه.

إن "الإسفين الأحمر" هو تعبير واضح عن النضال الثوري لتغيير المجتمع بفن مثله مثل أي عمل لأي فنان آخر. وهو يتمتع بطابع عالمي، حيث يمكن فهمه في أي مجتمع طبقي، حيث تناضل الطبقة الثورية من أجل مستقبلها، ومن أجل مستقبل البشرية ككل.

وعلى هذا النحو، فإن هذا العمل الفني يرتبط بشكل مباشر بتطلعات المستغَلين والمضطهَدين في كل مكان للإطاحة بمضطهِديهم، والبدء في تغيير المجتمع. إنه يستند إلى الشعور المتقد بالغضب الذي يشعر به الملايين إزاء ظروف حياتهم، والكراهية التي يشعرون بها تجاه حكامهم. ويُظهِر أنه إذا نظمنا أنفسنا واتحدنا معا، سيمكننا أن نقاوم وننتصر. إنه مصدر إلهام حقيقي.

وفي المقابل فإن الصورة تبث الخوف في قلوب الطبقة السائدة، التي تشعر بالرعب من حركة جماهيرية تكتسحهم وتسقطهم من السلطة.

وبالتالي فإنه لا يمكن لـ"الإسفين الأحمر" إلا أن يساعد في استنهاض مشاعر الناس، أينما كانوا. وهذا ما يجعله عملا فنيا عظيما حقا.

قطار الدعاية البلشفي "لينين"، ينشر الدعاية الثورية بين الفلاحين عام 1923

حافز للفعل

لم يعتبر إل ليسيتزكي العناصر الدعائية في "الإسفين الأحمر" على أنها تسوية مفروضة من الخارج. وإذا كان هناك أي شك آخر حول معتقدات إل ليسيتزكي الحقيقية، فما علينا إلا أن ننظر إلى ما صرح به هو نفسه في سيرته الذاتية، حيث يقول:

«كل عمل قمت به كان بمثابة دعوة ليس لإلقاء نظرة عليه، بل لاعتباره حافزا للفعل، ولحث مشاعرنا على اتباع الخط العام المتمثل في بناء مجتمع بلا طبقات»[8].

وبينما قد يتردد بعض البرجوازيين الصغار، الذين لا يرون إلا أنفسهم ومصالحهم الضيقة، في قبول فكرة الإبداع الفني لأغراض سياسية، فمن الواضح أنه لم يكن هناك تناقض عند إل ليسيتزكي، حيث كرس فنه بلا كلل للثورة ولبناء مجتمع جديد.

وحتى يومنا هذا، ما يزال ملايين الناس في جميع أنحاء العالم يستمدون الإلهام من لوحة "الإسفين الأحمر". فهي تظل بمثابة تذكير مذهل بأنه من الممكن بالفعل أن يستولي المضطهَدون والمستغَلون على السلطة بأيديهم، وأن يهزموا قوى الرجعية. وهي تمثل، في عالم المعاناة التي لا تطاق والفوضى، رمزا لإمكانية بناء عالم جديد.

Wellred Books
wellred-books.com

المراجع على موقعنا
marxist.com/
idom-47-references
أو قم بمسح رمز QR

"ارفعوا راية ماركس وإنجلز ولينين وستالين!" (1936)، غوستافس كلوسيس

الاشتراكية في بلد واحد

كيف تخلى ستالين عن الماركسية

كان لينين يؤكد دائما أن النصر النهائي للثورة الروسية مرتبط بانتصار الثورة العالمية. وقد كانت أمميته استمرارية مباشرة لأممية ماركس وإنجلز. لكن في عام 1924، كسر ستالين هذا التقليد وذلك من خلال طرح نظريته الرجعية "الاشتراكية في بلد واحد". في هذا المقال يشرح **نيكلاس ألبين سفينسون**، لماذا الماركسيون الحقيقيون أمميون، ولماذا عمل ستالين على تحريف الماركسية، وكيف كانت لذلك عواقب وخيمة طيلة عقود قادمة.

الشيوعيون أمميون دائما. لقد اختتم كارل ماركس وفريدريك إنجلز البيان الشيوعي بالكلمات الملهمة التالية: "يا عمال كل البلدان، اتحدوا!" ونقشت هذه الكلمات على راية الأممية الأولى والأممية الثانية والأممية الثالثة (الشيوعية).

كان مبدأ الأممية هذا محوريا بالنسبة لأفكار لينين وثورة أكتوبر. لكن وقبل مائة عام، في خريف عام 1924، قام ستالين بطرح نظريته عن "الاشتراكية في بلد واحد"، التي شكلت انحرافا جوهريا عن الماركسية وأرست الأساس النظري لانحطاط الأممية الشيوعية وحلها في عام 1943.

ما يزال تأثير تلك النظرية الزائفة محسوسا حتى اليوم. ومع تحول جيل جديد نحو أفكار الشيوعية، صار من الضروري أن نفهم التقليد الأممي الحقيقي لماركس وإنجلز ولينين ونداف ع عنه.

الأممية

إن الأممية الماركسية ليست مجرد عبارة خطابية أو مبدأ أخلاقيا؛ بل إنها تعكس ضرورة موضوعية.

لقد دافع ماركس وإنجلز دائما عن أن الشيوعية ليست مجرد فكرة جميلة سيتم فرضها على العالم، بل إن أساس الشيوعية، كما أوضحا، يكمن في الظروف المادية الحقيقية الموجودة في ظل الرأسمالية.

وعلى رأس تلك الظروف حقيقة أن الرأسمالية نظام عالمي. فجميع البلدان مرتبطة بالسوق العالمية وخاضعة لها. هذه مسلمة أساسية بالنسبة للماركسيين. فمن خلال السوق العالمية، يصبح الإنتاج نفسه عالميا. والمصانع في جزء من العالم تنتج السلع باستخدام المواد الخام القادمة من جزء آخر، والآلات المنتجة في جزء ثالث.

تتضمن سيرورة الإنتاج عشرات، بل ومئات الآلاف، من العمال ذوي خبرات ومهارات محددة، فضلا عن الموارد الطبيعية، من جميع أنحاء العالم. وقد كان هذا الترابط المتزايد للاقتصاد العالمي شيئا موجودا بالفعل في شكل جنيني في أيام ماركس. كتب ماركس وإنجلز في البيان الشيوعي ما يلي:

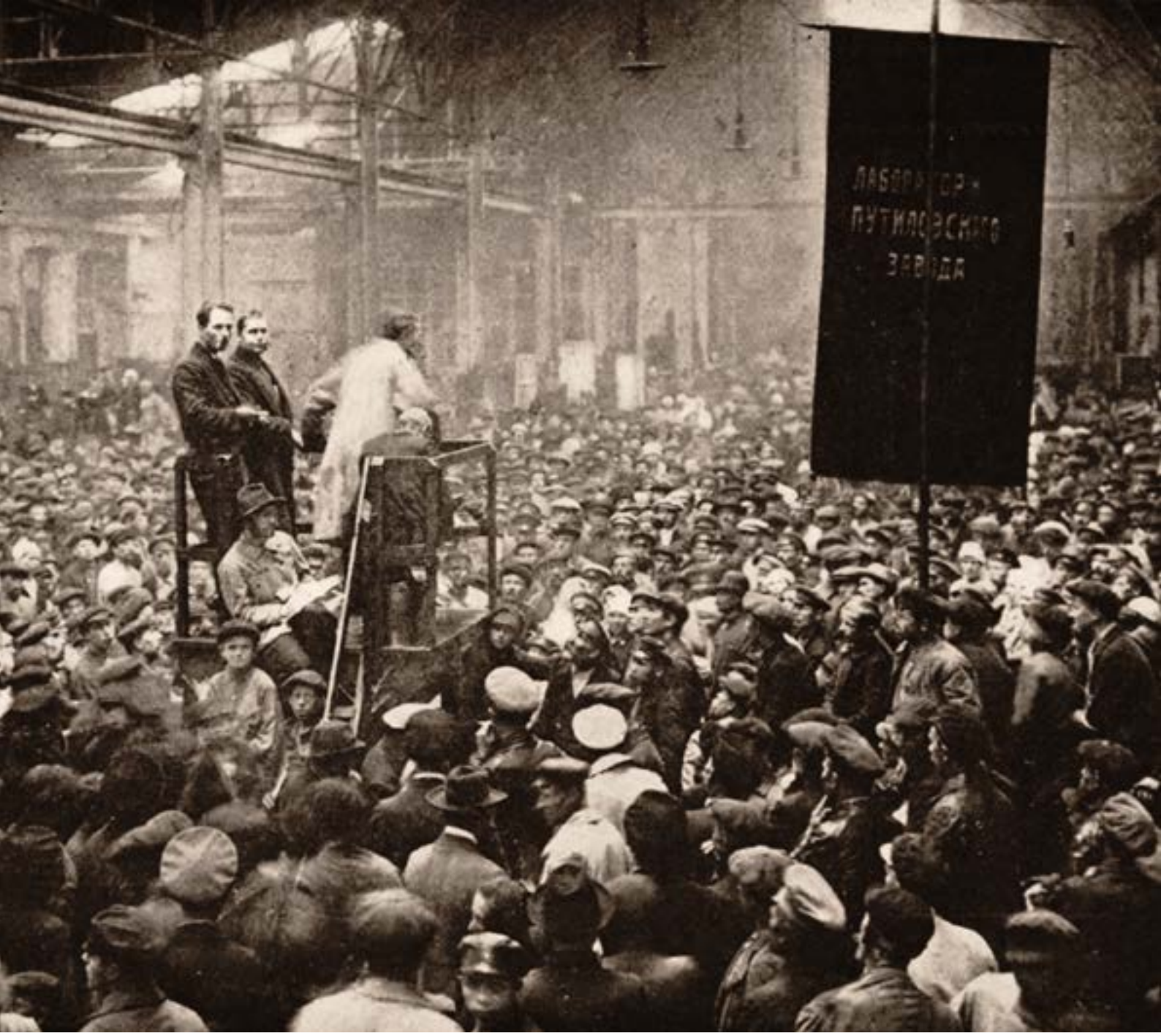

اجتماع سياسي في مصنع بوتيلوف في بتروغراد، 1917

«فمحل الانعزال الإقليمي والقومي والاكتفاء الذاتي القديم، تقوم علاقات شاملة في كل النواحي، وتقوم تبعية متبادلة شاملة بين الأمم»[1].

لقد أسست البرجوازية الدولة القومية ضد النزعة المحلية والإقليمية للنظام الإقطاعي، متغلبة على القيود التي كانت الإقطاعيات المحلية تفرضها على تطور القوى المنتجة. وقد لعبت في هذا دورا تقدميا. لكن وعلى مدى المائة والخمسين عاما الماضية، أصبحت الدولة القومية غير كافية. لقد صارت عائقا هائلا أمام المزيد من تطور قوى الإنتاج، وتعيق تطور البشرية.

إن صعود الإمبريالية الحديثة يعكس في الواقع هذا التناقض بين الطابع العالمي للإنتاج والتبادل في ظل الرأسمالية من ناحية، وبين الدولة القومية البرجوازية من ناحية أخرى.

في كتابه "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية"، أوضح لينين كيف أدى تطور الإنتاج الرأسمالي إلى هيمنة الاحتكارات والبنوك العملاقة العابرة للحدود الوطنية، والتي تسعى جميعها إلى الهيمنة على العالم، من استخراج المواد الخام إلى الاستيلاء على الأسواق وحقول الاستثمار. وبهذه الطريقة "تتغلب" الرأسمالية جزئيا على قيود الدولة القومية، بينما تعمل على تكثيف تناقضات النظام ككل إلى درجة لا تحتمل. والنتيجة هي اللامساواة الرهيبة والأزمات العميقة والحروب الإمبريالية.

يُظهر احتكار السوق العالمية، وسلاسل التوريد المنتشرة في جميع أنحاء العالم، أن قوى الإنتاج قد تجاوزت حدود الأسواق الوطنية بكثير. وهي تجد نفسها مقيدة بشكل متزايد بالحدود التي تفصل الدول القومية عن بعضها البعض. وما أسموه "العولمة"، أي توسع التجارة الحرة، كان، على وجه التحديد، محاولة للتغلب على ذلك القيد.

إن هـذا الأمـر مهـم بالنسـبة للشـيوعيين لأن المجتمـع الشـيوعي لا يمكـن تحقيقـه إلا عـلى أسـاس أعـلى مسـتوى مـن التطـور لقـوى الإنتـاج يمكـن تحقيقـه في ظـل الرأسـمالية، ولا يمكـن تحقيـق ذلـك إلا عـلى نطـاق عالمـي. ومـرة أخـرى، كـما كتـب ماركـس وإنجلـز في الإيديولوجيـة الألمانيـة:

«هـذا التطـور في القـوى المنتجـة (والـذي يفـترض في حـد ذاتـه الوجـود الفعـلي والتجريبـي للبـشر في كيانهـم التاريخـي العالمـي، بـدلا مـن المحـلي) هـو شرط عمـلي ضروري للغايـة لأنـه بدونـه يصبـح الخصـاص حالـة عامـة، ومـع الفقـر المدقـع سـيعاد بالـضرورة إنتـاج الـصراع مـن أجـل الحاجـات وكل الأمـور القـذرة [Scheiße] القديمـة»[2].

رفـع إنتاجيـة العمـل هـو الـشرط الضروري الـذي لا يمكـن بدونـه أن يتـم اختصـار يـوم العمـل وتمكـين الطبقـة العاملـة مـن المشـاركة الكاملـة في تسـيير المجتمـع. وهـذا هـو الشرط المـادي الـضروري لإلغـاء المجتمـع الطبقـي.

إن إحـدى المهـام الأساسـية للثـورة الاشـتراكية هـي عـلى وجـه التحديـد تحريـر القـوى المنتجـة مـن قيـود الدولـة القوميـة، سـواء تعلـق الأمـر بتقاسـم العلـوم أو المعـارف التقنيـة أو السـلع. وهـذا مـن شـأنه أن يمكـن مـن التعـاون الحقيقـي بـين العـمال والعلـماء والصناعـات في جميـع أنحـاء العـالم:

«إن لاعتـماد التبـادل الشـامل، وهـو الشـكل الطبيعـي للتعـاون التاريخـي العالمـي بـين الأفـراد، سـيتحول بواسـطة هـذه الثـورة الشـيوعية إلى السـيطرة والتحكـم الواعـي في تلـك القـوى [الاقتصاديـة]، التـي نشـأت مـن تفاعـل البـشر مـع بعضهـم البعـض، والتـي كانـت حتـى الآن تهيمـن عـلى البـشر وتتحكـم فيهـم كقـوى غريبـة تمامـا عنهـم.»[3]

ويواصـلان الـشرح بـأن تطـور قـوى الإنتاج الـذي تـم تحقيقـه بالفعـل تحـت الرأسـمالية "يجعـل كل أمـة تعتمـد عـلى ثـورات الأمـم الأخـرى"[4].

بعبـارة أخـرى، تشـكل الأمميـة جـزءا لا يتجـزأ مـن دور الطبقـة العاملـة في التاريـخ، ولا يمكـن أن يكـون الأمـر غـير ذلـك. وعندمـا تحـدث ماركـس وإنجلـز عـن أن الطبقـة العاملـة ليـس لهـا وطـن، فهـذا مـا كانـا يقصدانـه.

وفي "البيـان الشـيوعي"، الـذي هـو الوثيقـة المؤسسـة للحركـة الشـيوعية، نجـد مـا يـلي:

«الاختلافـات الوطنيـة والتناقضـات بـين الشـعوب تتـلاشى بشـكل متزايـد يومـا بعـد يـوم، نتيجـة لتطـور البرجوازيـة، وحريـة التجـارة، والسـوق العالميـة، والتوحيـد في نمـط الإنتـاج وفي ظـروف الحيـاة التـي تتوافـق معهـا. وسـوف يـؤدي تفـوق البروليتاريـا إلى تسريـع هـذا التـلاشي بشـكل أكـبر. إن **العمـل الموحـد، عـلى الأقـل بـين البلـدان المتقدمـة المتحـضرة، هـو أحـد الـشروط الأولى لتحـرر البروليتاريـا**.[5]» [التشـديد مـن عنـدي]

إن السـبب وراء هـذا ليـس فقـط الرغبـة في كـسر الحصـار الحتمـي والتدخـل العسـكري مـن جانـب الأمـم الرأسـمالية المعاديـة، بـل الأمـر الحاسـم هـو أن بنـاء "المرحلـة الأولى مـن المجتمـع الشـيوعي" -التـي يشـار إليهـا عـادة بالاشـتراكية- يتطلـب قـوى الإنتـاج الأكـثر تقدمـا التـي تطـورت في ظـل الرأسـمالية، والتـي هـي عالميـة بطبيعتهـا. هـذا في جوهـره هـو الموقـف الأسـاسي للماركسـية. واليـوم، أصبـح هـذا الموقـف أكـثر صحـة بمائـة مـرة مـما كان عليـه عندمـا كتـب البيـان الشـيوعي.

الثورة "الدائمة"

هـذا لا يعنـي بـأي حـال مـن الأحـوال أنـه يتوجـب عـلى عـمال العديـد مـن البلـدان أن ينهضـوا ويسـتولوا عـلى السـلطة في نفـس الوقـت بالضبـط. إن وجـود الـدول القوميـة، والتـي تعـرف كل منهـا صراعاتهـا الطبقيـة الوطنيـة الخاصـة بهـا عـلى مسـتويات مختلفـة مـن التطـور، يعنـي أن العـمال لـن يسـتولوا عـلى السـلطة دفعـة واحـدة في جميـع البلـدان، بـل سـيهزمون أولا الطبقـة السـائدة في بلـد واحـد.

كتـب ماركـس وإنجلـز في البيـان الشـيوعي:

«ورغـم أن الـصراع بـين البروليتاريـا والبرجوازيـة ليـس صراعـا وطنيـا في جوهـره، فإنـه يتخـذ في البدايـة شـكل صراع وطنـي. لـذا يتوجـب عـلى بروليتاريـا كل بلـد، بطبيعـة الحـال، أن تقـضي أولا عـلى البرجوازيـة في بلدهـا»[6].

كـما أدرك ماركـس وإنجلـز أنـه يمكـن للعـمال الاسـتيلاء عـلى السـلطة في بلـد متخلـف نسـبيا، قبـل عـمال البلـدان الأكـثر تقدمـا. ولكـن مـن أجـل بنـاء الاشـتراكية مـن الـضروري أن تنتـشر الثـورة إلى بلـدان أخـرى، وقبـل كل شيء إلى المركـز الرأسـمالي الأكـثر تقدمـا.

في عـام 1850، عندمـا خاطـب ماركـس اللجنـة المركزيـة للرابطـة الشـيوعية، تنـاول بالحديـث الثـورة المسـتقبلية في ألمانيـا، حيـث كان قسـم كبـير مـن الطبقـة العاملـة مـا يزالـون يعملـون تحـت نظـام الطوائـف المهنيـة، ومنقسـمين عـبر عـشرات الإمـارات شـبه الإقطاعيـة الصغـيرة، قـال:

«بينـما يرغـب البرجوازيـون الصغـار الديمقراطيـون في إنهـاء الثـورة في أسرع وقـت ممكـن... فمصلحتنـا ومهمتنـا هـي أن **نجعـل الثـورة دائمـة**، إلى أن يتـم إسـقاط جميـع الطبقـات المالكـة إلى حـد مـا مـن موقعهـا المهيمـن، وإلى أن تسـتولي البروليتاريـا عـلى سـلطة الدولـة، وإلى أن يتقـدم اتحـاد البروليتاريـين، **ليـس فقـط في بلـد واحـد بـل في جميـع البلـدان المهيمنـة في العـالم**، إلى الحـد الـذي يتوقـف فيـه التنافـس بـين بروليتاريـي تلـك البلـدان وتتركـز قـوى الإنتـاج الحاسـمة عـلى الأقـل في أيـدي البروليتاريـين»[7]. [التشـديد مـن عنـدي]

يتحـدث ماركـس عـن جعـل الثـورة "دائمـة"، بمعنـى انتقـال الثـورة مـن المهـام الديمقراطيـة البرجوازيـة (مثـل التوحيـد الوطنـي، في حالـة ألمانيـا في ذلـك الوقـت) إلى

المهام الاشتراكية: مصادرة أملاك البرجوازية والاستيلاء على سلطة الدولة، ومن ثم نشر الثورة من بلد إلى آخر.

الثورة الروسية

كان تخلف روسيا بمثابة تحد للثوريين هناك. إذ كيف يمكن في روسيا تطبيق هذا الفهم العام حول ضرورة بناء الاشتراكية على أساس أكثر قوى الإنتاج تقدما؟ من الواضح أن روسيا، بمفردها، لم تكن مستعدة للاشتراكية.

في عام 1905، أعطى تروتسكي الإجابة عن هذا السؤال بما يتماشى مع الاستراتيجية الثورية التي حددها ماركس. ففي سياق تعليقه على كيفية تطور الرأسمالية على نطاق عالمي، وتحول العالم إلى كيان اقتصادي وسياسي واحد، أوضح تروتسكي:

«هذا يضفي على الأحداث الجارية الآن طابعا أمميا على الفور، ويفتح أفقا واسعا. إن التحرر السياسي لروسيا بقيادة الطبقة العاملة سوف يرفع هذه الطبقة إلى مستوى غير معروف حتى الآن في التاريخ، وسوف ينقل إليها قوة وموارد هائلتين، وسوف يجعلها البادئة بتصفية الرأسمالية العالمية، وهي المهمة التي خلق التاريخ لها كل الظروف الموضوعية»[8].

أي أنه بغض النظر عن التخلف الذي كان موجودا في روسيا، فإن الشروط المسبقة للاشتراكية كانت موجودة على النطاق العالمي. وبالتالي يمكن للعمال الروس أن **يبدأوا** الثورة العالمية، والتي يمكن أن تكتمل بعد ذلك في أوروبا. وهكذا فقد وحدت استراتيجية تروتسكي بين نضج الاقتصاد العالمي للاشتراكية، من ناحية، وبين اختلاف درجات التطور واختلاف وتيرة الصراع الطبقي في مختلف البلدان، وفي روسيا على وجه الخصوص.

بفعل الضغوط الرهيبة التي فرضتها الحرب العالمية الأولى، انكسرت الرأسمالية عند أضعف حلقاتها: الإمبراطورية القيصرية. اندلعت الثورة، في فبراير 1917، ضد الحرب وضد الاستبداد، وحلت محل القيصر "حكومة مؤقتة" برجوازية ديمقراطية. وفي الوقت نفسه، أنشأ العمال والجنود مجالسهم الثورية الخاصة، تحت الاسم الروسي "السوفييتات".

آنذاك قام حزب المناشفة، الذي كان يحظى في ذلك الوقت بدعم أغلبية العمال الروس، بالمشاركة في الحكومة المؤقتة، مدعيا أن مهمة العمال وقتئذ هي دعم إنشاء دولة ديمقراطية، وليس النضال من أجل حسم السلطة.

وبرروا تلك السياسة على أساس أن روسيا متخلفة للغاية بحيث لا يمكنها بناء الاشتراكية. وبالتالي، فقد استنتجوا أن البرجوازية هي وحدها القادرة على الاستيلاء على السلطة. واستنتجوا أنه بعد فترة طويلة غير محددة من التطور الرأسمالي، ستصبح روسيا جاهزة أخيرا للثورة الاشتراكية. وفي الممارسة العملية، كان ذلك يعني الدفاع عن البرجوازية الروسية الضعيفة والمنحطة، ودعم الحرب الإمبريالية، ووقف الإصلاح الزراعي، والاستعداد لنزع سلاح العمال. أي أن المناشفة، باختصار، وضعوا أنفسهم في معسكر الثورة المضادة.

في مواجهة تلك الخيانة للطبقة العاملة، طرح لينين شعار "كل السلطة للسوفييتات!". وهو الشعار الذي كان يعني الاستيلاء على السلطة من قبل العمال والفلاحين، والإطاحة بالدولة البرجوازية. وفي إبريل 1917، أوضح لينين:

«إن السمة المميزة للوضع الحالي في روسيا هي أن البلاد **تنتقل** من المرحلة الأولى للثورة -والتي وضعت السلطة في أيدي البرجوازية بسبب نقص الوعي الطبقي والتنظيم لدى البروليتاريا- إلى مرحلتها **الثانية**، التي لابد وأن تضع السلطة في أيدي البروليتاريا وأفقر فئات الفلاحين»[9]. [التشديد في الأصل]

واعتمادا على هذا المنظور، تمكن الحزب البلشفي من كسب الأغلبية داخل السوفييتات واستولى العمال على السلطة تحت قيادة لينين وتروتسكي في أكتوبر.

إلا أن لينين وتروتسكي لم يكونا مثاليين

بحيث يعتقدان أنه يكفي تولي السلطة في روسيا ليصير من الممكن بناء الاشتراكية دون توفر الشروط **المادية** اللازمة لذلك. لقد كانا يدركان تمام الإدراك أن برنامجهما لا معنى له إلا في سياق الثورة العالمية.

في أحد القرارات (قرار بشأن الوضع الراهن) للمؤتمر الحاسم الذي نظمه البلاشفة في أبريل، وضع لينين الثورة الروسية في سياقها الأممي قائلا:

«إن الثورة الروسية ليست سوى المرحلة الأولى من أولى الثورات البروليتارية التي هي النتيجة الحتمية للحرب»[10].

بهذه الروح الأممية قام الحزب الشيوعي الروسي، إلى جانب مندوبين من 33 بلدا، بتأسيس الأممية الشيوعية في مارس 1919. وقد تم إنشاؤها على وجه التحديد من أجل نشر الثورة العالمية خارج حدود الدولة العمالية الجديدة.

في العام نفسه، وفي سياق جداله للدفاع عن السلطة السوفياتية، طرح لينين في كتاب "الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي"، الموقف الأممي الحقيقي فيما يتعلق بالحرب الإمبريالية، حيث قال:

«إذا كانت الحرب حربا رجعية وإمبريالية، [...] فإن واجبي باعتباري ممثلا للبروليتاريا الثورية هو الاستعداد للثورة البروليتارية العالمية باعتبارها المخرج الوحيد من أهوال المذبحة العالمية. علي أن أجادل، ليس من وجهة نظر "بلدي" (فهذه حجة القومي البرجوازي الصغير البائس، الغبي، الذي لا يدرك أنه ليس سوى لعبة في أيدي البرجوازية الإمبريالية)، بل من وجهة نظر مشاركتي في التحضير، والدعاية، وتسريع الثورة البروليتارية العالمية»[11].

وبعبارة أخرى، فإن لينين لم يكن يعد للثورة في روسيا فحسب، بل كان يعمل من أجل الثورة في مختلف أنحاء العالم. ويتابع:

«كانت تكتيكات البلاشفة صحيحة؛ [...] لم تكن تستند إلى الخوف الجبان من الثورة العالمية، ولا إلى "الافتقار إلى الإيمان" بها [...] بل إلى تقدير صحيح (وقبل الحرب وقبل ارتداد الاشتراكيين الشوفينيين والاشتراكيين المسالمين، كان هذا التقدير مقبولا على نطاق واسع) للوضع الثوري في أوروبا. وقد كانت هذه التكتيكات هي التكتيكات الأممية الوحيدة، لأنها بذلت أقصى ما في وسعها في بلد واحد من أجل تطوير ودعم وإيقاظ الثورة في جميع البلدان»[12].

وبالفعل فقد أعقبت الثورة الروسية موجة ثورية في ألمانيا وإيطاليا والنمسا والمجر وبلدان أخرى. لكن الطبقات السائدة والاشتراكيين الديمقراطيين تمكنوا إما من سحق الحركة أو توجيهها نحو قنوات أكثر أمانا.

وقد استمر لينين، حتى إصابته بالعجز بسبب المرض، يؤكد على أن بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي سيكون مستحيلا بدون انتصار الثورة الاشتراكية في أماكن أخرى، وفي البلدان الرأسمالية المتقدمة على وجه الخصوص. وفي مقاله "من الأفضل أقل، شرط أن يكون أفضل" (1923)، كتب:

«إن السمة العامة لحياتنا الحالية هي ما يلي: لقد حطمنا الصناعة الرأسمالية وبذلنا قصارى جهدنا لتدمير المؤسسات القروسطوية من جذورها، وتحطيم الملكية العقارية الإقطاعية، وخلقنا على هذا الأساس طبقة فلاحية صغيرة وصغيرة للغاية، تتبع قيادة البروليتاريا لأنها تؤمن بنتائج عملها الثوري. ولكن ليس من السهل علينا أن **نستمر بمساعدة هذه الثقة وحدها حتى تنتصر الثورة الاشتراكية في البلدان الأكثر تقدما**، لأن الضرورة الاقتصادية، وخاصة في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة، تبقي إنتاجية عمل الفلاحين الصغار والصغار جدا عند مستوى منخفض للغاية»[13]. [التشديد من عندي]

وأضاف: «... نحن أيضا نفتقر إلى القدر الكافي من الحضارة لتمكيننا من الانتقال مباشرة إلى الاشتراكية، على الرغم من أننا نمتلك المتطلبات السياسية اللازمة لذلك»[14].

وبعبارة أخرى، عندما كان لينين يتحدث عن الخطوات نحو الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، كان ذلك دائما من منظور الحفاظ على دولة العمال (المتطلب السياسي للاشتراكية) إلى أن تتمكن الثورة من الامتداد إلى الغرب. لم يكن البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي والثورة العالمية سياستين منفصلتين ومتعارضتين؛ بل كانت إحداهما مرتبطة بطبيعتها بالأخرى.

ستالين يحرف الماركسية

بعد وفاة لينين كان الوضع على النحو التالي: لم تتمكن القوى الإمبريالية من سحق الاتحاد السوفياتي واستعادة الرأسمالية، لأن أزماتها الداخلية وحركات الطبقة العاملة القوية منعتها من القيام بذلك. وقد أدى هذا إلى خلق توازن جديد مؤقت، لكنه هش بطبيعته.

تضرر الاتحاد السوفياتي بشدة بسبب الحرب الأهلية والعزلة عن السوق العالمية في ظل ظروف التخلف الاقتصادي الشديد. انخفض حجم الطبقة العاملة إلى أقل مما كان عليه قبل الثورة، وكان العمال يجدون صعوبة هائلة في المشاركة الكاملة في السوفييتات بسبب ظروف حياتهم القاسية.

كانت الضرورة الاقتصادية لنشر الثورة تفرض نفسها بقسوة، وخاصة في ظل ذلك الاقتصاد المتخلف. وكما تنبأ ماركس، فإن "الصراع من أجل الضروريات" استمر بالفعل، بل وازداد سوءا.

كان على الاتحاد السوفياتي أن يقدم تنازلات للسوق من أجل تحفيز الإنتاج. أطلق على تلك السياسة اسم السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP). أوضح لينين أنه بسبب كون البلد متخلفا جدا، فإنه من الضروري اللجوء إلى الأساليب الرأسمالية في انتظار انتصار الطبقة العاملة في البلدان الأكثر تقدما. ولقد حذر كل من لينين وتروتسكي باستمرار من المخاطر التي قد تترتب عن ذلك.

لقد أدى النيب إلى تسريع تطور التفاوتات. فقد كان يعني السماح للرأسمالية بالانتشار إلى القطاع الزراعي، مما أفاد الفلاحين الأثرياء، أو "الكولاك". ونشأت في الصناعة والتجارة طبقة صغيرة من الرأسماليين، الذين أصبحوا يُعرفون باسم "رجال النيب".

كما أدت التفاوتات إلى تعزيز البيروقراطية الحكومية التي كان عليها بالضرورة أن تديرها. وكان بوسع البيروقراطية أن تستند على تلك الفئات البرجوازية ضد الطبقة العاملة.

كانت هزيمة الثورة الألمانية، في خريف عام 1923 سببا في تفاقم تلك المشكلة، الأمر الذي أدى إلى إنهاء فترة الصعود الثوري التي أعقبت الحرب العالمية الأولى.

بدأ التعب يتسلل إلى نفوس العمال. فقد تسللت الشكوك إلى نفوسهم حول برنامج الثورة العالمية، وهو ما كان يتوافق مع التعب الذي أصاب العمال في الاتحاد السوفياتي بعد ثلاث سنوات من الحرب العالمية، وثورتين، وثلاث سنوات من الحرب الأهلية.

وفي ذلك الوقت نفسه، توفي لينين، في يناير 1924. مما أتاح الفرصة لظهور تيار سياسي جديد إلى العلن.

كانت ضغوط الطبقات الأخرى، من جانب الفلاحين الأثرياء ورجال النيب تنعكس بشكل متزايد داخل الحزب الشيوعي الحاكم، وخاصة جناحه اليميني. وقد جسد نيكولاي بوخارين ذلك الاتجاه.

زعم بوخارين أن الاشتراكية يمكن بناؤها "بسرعة السلحفاة" وعلى "أساس تقني ضعيف". أو بعبارة أخرى، يمكن بناء الاشتراكية على أساس مستوى منخفض من تطور قوى الإنتاج. كان ذلك يتناقض تماما مع الفهم المادي للتاريخ، ولكنه كان يناسب تماما تحالف الفئات البرجوازية مع البيروقراطية والذين كانوا يشتركون في نفورهم من الطبقة العاملة والثورة التي كانوا يعتبرونها بحق تهديدا لهم.

وبحسب تلك الحجة، فإنه لم تكن هناك حاجة إلى المرور بصعوبات الثورة العالمية؛ ولم تكن هناك حاجة إلى المزيد من الاضطرابات؛ وبوسعنا أن نعود إلى "الوضع الطبيعي". وأن كل ما هو ضروري لانتصار الاشتراكية هو السماح للبيروقراطية بمواصلة عملها.

في خريف عام 1924، ألقى ستالين سلسلة من المحاضرات لنشطاء الحزب الشباب، والتي نُشرت آنذاك في شكل كتيب بعنوان "أسس اللينينية".

في النسخة الأصلية من الكتيب الصادر في أبريل 1924، يمكننا أن نجد ما يلي:

«تكفي جهود بلد واحد للإطاحة بالبرجوازية، وهذا ما يشهد به تاريخ ثورتنا. لكن لتحقيق النصر النهائي للاشتراكية، **وتنظيم الإنتاج الاشتراكي**، فإن جهود بلد واحد، **وخاصة بلد فلاحي مثل بلدنا**، ليست كافية، بل يتعين علينا، من أجل ذلك، أن نستعين **بجهود البروليتاريين من العديد من البلدان المتقدمة**»[15]. [التشديد من عندنا]

ورغم أن المنشور بشكل عام كان من أجل الهجوم على تروتسكي ومعارضته اليسارية التي تشكلت في عام 1923، إلا أنه بقي محتفظا بموقف ماركس وإنجلز ولينين.

لكن بعد بضعة أشهر سُحبت تلك الطبعة من التداول، وتم إصدار طبعة جديدة، حيث تم استبدال الفقرة أعلاه بما يلي:

«ولكن الإطاحة بسلطة البرجوازية وإرساء سلطة البروليتاريا في بلد واحد لا يعني بعد ضمان النصر الكامل للاشتراكية. فبعد ترسيخ سلطتها وقيادة الفلاحين في ركبها، **تستطيع البروليتاريا في البلد المنتصر أن تبني مجتمعا اشتراكيا، بل ويتعين عليها أن تفعل ذلك**. لكن هل يعني هذا أنها ستحقق بذلك النصر الكامل والنهائي للاشتراكية، أي هل يعني هذا أنها تستطيع بقوى بلد واحد فقط أن تعزز الاشتراكية في النهاية وتحصن

هـذا البلـد بالكامـل ضـد التدخـل، وبالتـالي ضـد اسـتعادة الرأسـمالية؟ كلا، ليـس الأمـر كذلـك. فلتحقيـق ذلـك الهـدف، **لا بـد مـن انتصـار الثـورة في عـدة بلـدان عـلى الأقـل**»[16]. [التشـديد مـن عندنـا]

وهكـذا، فبـدلا مـن تحقيـق الاشـتراكية **مـن خـلال** الثـورة العالميـة، تحولـت الأولويـة بالنسـبة للعـمال في الدولـة العماليـة، الاتحـاد السـوفياتي في هـذه الحالـة، إلى بنـاء الاشـتراكية بأنفسـهم. تـم الحفـاظ (مؤقتـا) عـلى النضـال مـن أجـل الإطاحـة بالرأسـمالية في جميـع أنحـاء العـالم، لكـن ذلـك فقـط لحمايـة المجتمـع الاشـتراكي ضـد التدخـل الخارجـي.

وقـد أوضـح سـتالين في كتابـه "حـول مسـائل اللينينيـة" مـا اعتـبره عيبـا في الموقـف السـابق قائـلا:

«عيبـه هـو أنـه يجمـع بـين سـؤالين مختلفـين في سـؤال واحـد: فهـو يجمـع بـين مسـألة **إمكانيـة** بنـاء الاشـتراكية مـن خـلال جهـود بلـد واحـد -والتـي ينبغـي الإجابـة عليهـا بالإيجـاب- وبـين السـؤال عـما إذا كان في مقـدور البلـد الـذي توجـد فيـه دكتاتوريـة البروليتاريـا أن يعتـبر نفسـه **محصنـا تمامـا** ضـد التدخـل ...»[17]. [التشـديد في الأصـل]

وهكـذا تـم حـذف الفهـم الماركـسي المـادي لبنـاء الاشـتراكية. وأزال سـتالين الإشـارات إلى تخلـف روسـيا والحاجـة إلى انتشـار الثـورة إلى البلـدان المتقدمـة. لقـد أصبـح تنظيـم الاقتصـاد الاشـتراكي الكامـل ممكنـا، وفقـا لسـتالين، ليـس فقـط ضمـن حـدود بلـد واحـد، بـل وأيضـا بلـد متخلـف وفقـير مثـل روسـيا في عشرينيـات القـرن العشريـن.

التخلي عن الثورة العالمية

لقـد اعـترف سـتالين، ولـو جزئيـا، بأنـه كان يراجـع الموقـف الماركـسي، عندمـا كتـب "أسـس اللينينيـة"، حيـث قـال:

«في السـابق، كان انتصـار الثـورة في بلـد واحـد يعتـبر مسـتحيلا، عـلى افـتراض أنه يتطلـب العمـل المشـترك للبروليتاريـين مـن جميـع البلـدان المتقدمـة، أو عـلى الأقـل أغلبهـا، لتحقيـق النـصر عـلى البرجوازيـة. أمـا الآن فـإن وجهـة النظـر تلـك لم تعـد تتناسـب مـع الحقائـق»[18].

إن حجـة سـتالين غـير نزيهـة عـلى الإطلاق، فهـي تخلـط بشـكل متعمـد بـين مسـألة اسـتيلاء الطبقـة العاملـة عـلى السـلطة، وبـين مسـألة بنـاء الاشـتراكية. لم تكـن المسـألة أبـدا متعلقـة بمـا إذا كانـت البروليتاريـا قـادرة عـلى الاسـتيلاء عـلى السـلطة في بلـد واحـد. لقـد شرح ماركـس وإنجلـز ولينـين وتروتسـكي أن الثـورة يجـب أن تنتـشر مـن بلـد إلى آخـر، وهـو مـا يفـترض أنهـا تبـدأ مـن مـكان مـا. كان السـؤال المطـروح هـو مـا إذا كان مـن الممكـن **بنـاء الاشـتراكية عـلى أسـاس المـوارد الماديـة لبلـد واحـد فقـط**. وقـد كان هـذا هـو التحريـف الـذي أدخلـه سـتالين.

وبعـد وفـاة لينـين اسـتُخدمت حجـة رجـل القـش هـذه كسـلاح ضـد تروتسـكي والمعارضـة اليسـارية. فمـن خـلال الادعـاء بـأن تروتسـكي والمعارضـة اليسـارية لديهـما فكـرة سـخيفة مفادهـا أن العـمال لا يمكنهـم القيـام بالثـورة في بلدهـم مـا لم تحـدث في كل مـكان في وقـت واحـد، صـار بإمـكان سـتالين أن يزعـم أن الثـورة الروسـية قـد دحضـت حجتهـم، وتمكـن في هـذه العمليـة مـن أن يسـتخرج اقتباسـات مختلفـة مـن كتابـات لينـين يسـخر فيهـا مـن تلـك الفكـرة.

وقـد صـار هـذا التشـويه للأفـكار الأساسـية للنظريـة الماركسـية تقليـدا راسـخا في السـتالينية.

بـل إن سـتالين زعـم في المؤتمـر الخامـس عـشر للحزب الشـيوعي، عـام 1926 أن موقف ماركـس وإنجلـز لا ينطبـق إلا عـلى المرحلـة السـابقة مـن التطـور الرأسـمالي. ووفقـا لـه، فإنـه في عـصر الإمبرياليـة، ومـع التناقضـات الحـادة بـين القـوى الإمبرياليـة، صـار مـن الممكـن انتصـار الاشـتراكية في البلـدان الفرديـة، مـن خـلال ثغـرة في "الجبهـة الإمبرياليـة". يعتـبر هـذا قلبـا للأمـور رأسـا عـلى عقـب. إذ وعـلى العكـس مـن ذلـك، يُظهـر الترابـط الشـديد للاقتصـاد العالمـي الحديـث أن تحليـل ماركـس وإنجلـز للرأسـمالية قـد صـار أكـثر قابليـة للتطبيـق في الوقـت الحـاضر مـما كان عليـه أثنـاء فـترة حياتهـما.

في عـام 1928، قـال تروتسـكي إن ضيـق الأفـق القومـي في السياسـة كان «الـشرط المسـبق للأخطـاء القوميـة الإصلاحيـة والاشـتراكية الوطنيـة الحتميـة في المسـتقبل»[19]. وقـد أثبـت مسـار التاريـخ أن تروتسـكي كان محقـا.

أدى تبنـي النظريـة التحريفيـة "الاشـتراكية في بلـد واحـد" إلى التخلـي عـن الثـورة العالميـة مـن قبـل قيـادة الاتحـاد السـوفياتي. فأصبحـت الأمميـة الشـيوعية بـين أيديهـم مجـرد أداة للسياسـة الخارجيـة تُـدار مـن موسـكو. وفي عـام 1943، تـم حـل الأمميـة كبـادرة حسـن نيـة تجـاه الحلفـاء. لقـد تـم تدمـير الحـزب العالمـي للثـورة الاشـتراكية الـذي أسسـه لينـين تدميـرا كامـلا.

واليـوم صـارت ضرورة إرسـاء أسـس متينـة لحركـة شـيوعية جديـدة، والعـودة إلى أمميـة ماركـس وإنجلـز ولينـين وتروتسـكي، مهمـة أكـثر مـن أي وقـت مـضى. ولـن نتمكـن مـن تأمـين انتصـار الثـورة الشـيوعية العالميـة إلا مـن خـلال إعـادة تسـليح الحركـة العماليـة بهـذه الأفـكار.

المراجع على موقعنا
marxist.com/idom-47-references
أو قم بمسح رمز QR

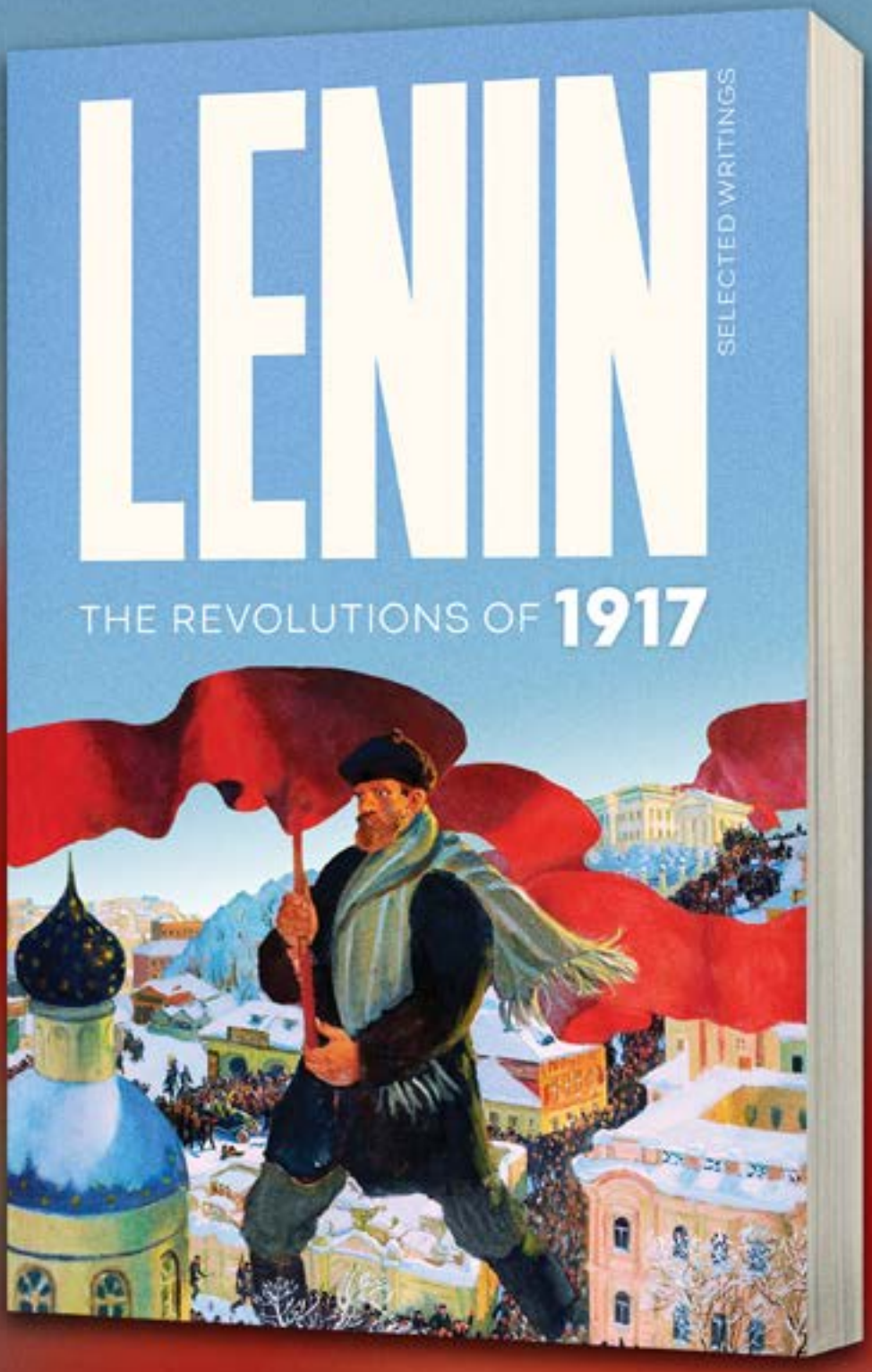

New from
Wellred Books!

Featuring nearly 70 articles written by Lenin between the outbreak of the February Revolution and the victory of October in 1917, this collection provides a marvellous insight into the Bolshevik leader's thinking in this crucial year.

wellred-books.com